

ماهر نسيم

لمحات من الأدب الروسي

دار المعارف بمصر

لمحات من الأدب الروسي

ماهر نسيم

لمحات من الأدب الروسي

اقرأ ١٨٢

رالمعارف بمصر

اقرأ ١٨٢ – فبراير سنة ١٩٥٨

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر

تقديم

ليس هذا الكتاب دراسة وافية فى الأدب الروسى ؛ وإنما هو لمحات فى هذا الأدب الذى طرأت عليه تطورات هادئة حيناً وثورية أحياناً . . فمن أدب شعبى إلى أدب ثورى إلى أدب إقليمى إلى أدب اشتراكى . وظهر فى كل عصر من العصور كُتّابٌ مثّلوا عصرهم أصدق تمثيل . فالكتّاب الشعبيون كانوا يعبّرون عن آمال الشعب ورغباته بطريقة ملتوية فرضتها عليهم ظروفهم .. كذلك كان الكتاب الثوريون يعبّرون عن الثورة التى كانت تتشكل فى عقولهم ونفوسهم ، تعبيراً غامضاً فى حدود الحريات المقيدة التى يستمتعون بها . كما كان الكتاب الإقليميون يعبّرون عن تعلقهم ببلادهم وإيمانهم بها وإيثارهم لها تعبيراً مستمداً من ظروفهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . . ثم جاء الكتّاب الاشتراكيون فعبّروا عن مبادئهم الاشتراكية تعبيراً لم يستكمل كل أسباب الجرأة والقوة والصمود ، لأنهم كانوا لا يزالون « ضائعين » لا يعرفون ما قد يأتى به الغد . . .

ولقد آثرت أن أختم هذه اللمحات بالكاتب العبقرى « تشيكوف » لأنه كان الخط الفاصل بين جيلين . . . الجيل القديم ، والجيل الجديد ؛ ولأن تشيكوف هو العملاق الذى لم ينجب الأدب الروسى صنواً له حتى الآن . . .

وأخيراً ، آمل أن تكون هذه اللمحات صادقة فى دلالتها عن تطور الأدب الروسى . . . والله ولى التوفيق . . . .

ماهر نسيم

الجزء الأول

- الحركة الشعبية
- الحركة الاشتراكية الثورية
- الحركة الاشتراكية الجديدة

الفصل الأول

مولد « الحركة الشعبية »

كان تحرير الفلاحين من رِقّ الإقطاع الزراعي في عام ١٨٦١ ، وما تلاه من إصلاحات عامة شاملة بداية عصر الحركة الشعبية في روسيا . . . فالشغف بالعلم ، والإقبال على العمل ، والرغبة في الارتقاء بالذات ، ومحاولة تقليد الغرب ، والاتجاهات الجديدة التي سادت العلوم والآداب والفنون ، كل هذا كان بداية مولد جيل جديد يتوق إلى البناء والتقدم .

ولكن بقايا العبودية الزراعية لم تكن قد اُجتثت من جذورها ، مما جعل مستوى معيشة الشعب منخفضاً . فقد كان الفلاحون مرهقين بالضرائب وأقساط الأرض — وهو ثمن تحريرهم ، كما كانت الفوارق بين الطبقات لا تزال قائمة ، والسلطات الحكومية لا تزال أوتوقراطية متسلطة .

وعند ما رفض القيصر ووزراؤه تتويج تحرير الفلاحين من رِقّ الإقطاع الزراعي بدستور جديد حر ، انهارت أحلام الطبقة المثقفة التي كانت تعتقد أن الإصلاح السياسي لن يلبث أن

يأتى فى أعقاب الإصلاح الزراعى . وإذ انهارت هذه الأحلام الحلوة ، أصيبت طبقة المثقفين بخيبة أمل قوية جعلتهم يلجأون إلى قوارص الكلام يوجهونه نقداً مريراً إلى السلطات الحاكمة .

وإذ انتشر السخط ونمت المعارضة ، لجأت الحكومة إلى العسف والظلم ، فقبضت على الكتّاب الشعبيين الذين دفعهم تذمرهم الفكرى إلى المناداة بالعنف . وكانت محاولة الطالب « كاراكوزوف » قتل القيصر سبباً فى ارتفاع المد الثورى وزيادة حدة الموقف إثارة وعنفاً . فمحاولة اغتيال القيصر كانت بمثابة ثورة متبلورة على نظام الحكم ، ولكنها كانت فى الوقت نفسه سبباً فى زيادة عسف الحكومة وجبروتها . وهكذا نشأت قوتان متضادتان ومتعارضتان : الثورة والقمع .

وكانت الآراء الاشتراكية متسلطة على أخيلة طلاب الجامعة وطبقة المفكرين من الفلاحين ورجال الدين والمثقفين من رجال الطبقة الوسطى ، فاعتنقها قادة مثقفون من أمثال « هرزن » و « شرنيشفزكى » و « بيساريف » و « لافروف » و « باكونين » وعدد كبير من الصحفيين . وأتاحت «هجرة» بعض طلاب الجامعة إلى الجامعات الأوربية فرصة جديدة لنمو الوعى الاشتراكى . ففى جامعات باريس وجنيف وهيدلبرج وبون التقى هؤلاء الطلاب بالقادة الثوريين الذين كانوا قد هربوا من سيبيريا للإفلات من

قبضة البوليس القيصرى . وسرعان ما أدت الاجتماعات التى كان القادة الثوريون يعقدونها ويؤمها هؤلاء الطلاب إلى تكوين مئات من الندوات والدوائر الثقافية فى شتى أنحاء أوروبا . وشيئاً فشيئاً بدأ هؤلاء الطلاب يطبقون ما سمعوه من هؤلاء القادة الثوريين على الأوضاع التى كانت سائدة فى روسيا ، فأنشأ بعضهم عدداً من المطابع ، كما راح البعض الآخر يهرِّب الكتب الثورية إلى روسيا . وكان الواحد منهم إذا عاد إلى بلاده ، أخفى بين أمتعته عدداً من المنشورات الثورية فى مخابئ مستورة فى حقائبه .

* * *

وما أن انتصف العقد السابع ، حتى كان « لافروف » و « باكونين » يتزعمان حركة ثقافية تهدف إلى نشر الوعى الثورى الجديد بين المواطنين الروسيين .

وكان « بيتر لافروف » فى الخامسة والأربعين من عمره عند ما نشر عام ١٨٦٨ سلسلة من المقالات الصحفية بعنوان « الخطابات التاريخية » تحت توقيع مستعار هو « ميرتوف » . وعند ما جمع تلك المقالات فى كتاب نشره فى العام التالى ، لجأ البوليس القيصرى إلى مصادرة الكتاب ، ولكن بعد فوات الأوان فقد نفدت الطبعة كلها ، ولم يستطع رجال البوليس أن يعثروا

فى المكتبات على أية نسخة منه . وكان لا بد أن ينتقم رجال البوليس لكبريائهم الجريحة ، فقبضوا على « لافروف » ونفوه إلى سيبريا ، بيد أنه استطاع بعد فترة وجيزة أن يهرب إلى باريس حيث أقام حتى مات .

وكان نجاح كتاب « الخطابات التاريخية » بشيراً بمولد عهد جديد ، هو الإنتقال من «الفوضوية» وآرائها عن العلوم الطبيعية إلى « الشعبية » واهتمامها بالمشاكل الاجتماعية . وكانت « شعبية» لافروف نتيجة « طبيعية » لإيمانه بأن الفضل فى التقدم الثقافى مرجعه إلى الملايين الذين يكدّون ويكدحون ، ويتيحون باستنزاف قواهم فى العمل الشاق المضنى ، للمثقفين فرصة التوفر على الدرس والبحث والإبداع . وكانت له فى ذلك كلمة مشهورة هى « إننا مدينون للشعب بما نتمتع به من ثقافة وفن . فلقد استطعنا نحن السعداء القلائل أن نقطف زهور الفلسفة والأدب والفن ، بفضل الغالبية الشعبية التى تعكف على نحت الصخر من جوف الأرض . .. فهذا العمل الشاق المرير الذى قام به الشعب هو الذى مكّن من تشييد صروح العلم والأدب والفن . ومع ذلك فإن دخول هذه الصروح محرّم على هذا الشعب الذى أتاح لنا الاستمتاع بكل هذه النعم ... إننا مطالبون بأن نرّد الديْن إلى الشعب ، وذلك بالعمل على تربيته وتحريره . . . يجب أن يقوم

عهد جديد يضع حدًّا للظلم الاجتماعى والاستغلال ، ويجعل الثقافة عامة فى متناول جميع أفراد الشعب » .

وإذا كان « لافروف » يعتقد أن الثورة الاشتراكية التى كان يحلم بها يمكن أن تقوم على أكتاف الطبقات العاملة ، فقد أصر على ضرورة إيقاظ ضمائرهم الهاجعة قبل دفعهم إلى الثورة . وكان ينادى بأن إيقاظ ضمائر الشعب الهاجعة موكول إلى المثقفين ، فوجّه إليهم نداءه الشهير « اذهبوا إلى الشعب . . . انشروا الحقيقة بين الفلاحين والعمال » .

ولكن تلاميذه وحوارييه كانوا على عجلة من أمرهم ، فتساءلوا « لماذا نحاول أن نشذب الفروع ، بينما يستطيع معول الثورة أن يجتث الشجرة كلها من جذورها ؟ ليس من المجدى إنفاق الوقت والجهد فى تثقيف الشعب ، فالثورة الاشتراكية تستطيع بعد نجاحها أن تعنى بهذا الأمر » ، ولكن « لافروف » كان يطلب إليهم ألا يقلقوا قائلاً لهم إنهم إذا كانوا اليوم عشرة فسوف يصبحون فى الغد مائة ، ثم ألفاً بعد شهر من الزمان ، وإن الانقلاب الاشتراكى لن يُقدّر له النجاح إلاّ بالدعاية له بين الشعب الذى يكتنز فى عقله ميولاً اشتراكية تتمثل فى المجتمعات الريفية ونقابات العمال والمتنورين من رجال الدين .

وهنا تتفق آراء « لافروف » عن الشعبية مع عقيدة « هرزن »

الثورية الدينية ، ولكن « لافروف » كان يجحد فكرة القدر و « النصيب » مؤكداً دور الفرد الإبداعى فى تشكيل معالم التاريخ . ولكنه لم يكن فى الوقت نفسه يقبل تفسير « ماركس » المادى للتاريخ ، فهو يقول فى ذلك « لست أنكر أهمية الصراع الطبقى والاقتصادى ، والصدام بين مصالح أولئك الذين يملكون من جانب وأولئك الذين لا يملكون من جانب آخر . . ولكن يجب أيضاً أن نعتد بعوامل أخرى متعلقة بالحياة البشرية والنفس الإنسانية . . فالاشتراكية يجب أن ترتكز أولاً وقبل كل شىء على أسس أخلاقية تخدم أغراض الحرية والعدالة والإخاء ونمو الفرد المتكامل المنسجم مع غيره من الأفراد لإنها ليست مجرد ضرورة اقتصادية » .

ولكن « لافروف » كان ثورياً فى الوقت ذاته ، إذ كان يقول « . . . بما أن الطبقة الحاكمة لن تنزل طواعية عن سطوتها فإننا لن نستطيع أن نحقق أغراضنا إلا عن طريق انقلاب ثورى » . . . وكان يؤمن بذلك إيماناً ملك عليه نفسه ، حتى لقد أطلق على نفسه اسم « الاشتراكى الانقلابى » . .

وسرعان ما استولت آراء « لافروف » عن الفردية الأخلاقية على أخيلة تلاميذه وحوارييه الذين كانوا يتعجلون الثورة ، فراحوا يعملون على تنوير الشعب عن طريق التعليم العام .

ونجحت هذه الخطة رغم احتجاج أتباع « باكونين » الذين كانوا يطالبون بأن يبدأ الإصلاح « من فوق » ، أى عن طريق اجتثاث الشجرة الفاسدة كلها من جذورها . . .

* * *

أما « ميشيل باكونين » فهو أحد مؤسسى نظرية « الفوضوية العالمية » . وقد أسهم فى الثورة الأوربية عام ١٨٤٨ وسُجن ثم سلمته الحكومة النمسوية فى النهاية إلى روسيا التى ما كاد يصل إليها حتى أوثِق بالسلاسل فى حائط زنزانة بقلعة القديسين بطرس وبولس . ولكن المعاملة القاسية التى كانت توشك أن تقضى عليه ، لم تلبث أن خُفّفت عند ما رفع إلى الإمبراطور نيقولا الأول وثيقة سجل فيها اعترافه بأخطائه . . ثم نُفِى إلى سيبريا فى النهاية ، ولكنه استطاع عام ١٨٦١ أن يهرب إلى أوربا حيث راح لأكثر من خمسة عشر عاماً يحرّض على الاضطرابات ويثير الشعب ويسهم فى شتى ضروب المؤامرات السياسية .

ولكن « باكونين » رغم مبادئه الثورية المتطرفة ، كان خصماً عنيداً ومنافساً لدوداً لكارل ماركس . وزاد نشاطه خطورة ما عمد إليه من تأليف فرق عسكرية للعمال ، وتأسيس جمعيات ثورية فى القارة الأوربية وخاصة فى الممالك اللاتينية والسلافية .

وهكذا كان أول من أقام أساساً عسكريًّا للحركة الثورية الاشتراكية ، ونشر وعياً ثوريًّا عالمى النطاق . . . ذلك أنه كان يعتقد اعتقاداً جازماً أنه ينبغى أن تقوم فى شتى أنحاء العالم كله وفى وقت واحد ، ثورة عالمية . كذلك كان أول ثورى روسى لعب دوراً رئيسيًّا فى الحركة العمالية الأوربية ؛ كما كان لايؤمن بالقيم والمؤسسات الديموقراطية ، ولا يعترف إلا بوجود قوتين متعارضتين لا ثالث لهما : هما أولا : الدولة بسيطرتها وظلمها وما تعمد إليه من عسف وقهر وزيف ؛ وثانياً : الثورة بما فيها من حرية ، وتحرر كامل للفرد ، وتنظيم اقتصادى اشتراكى قائم على أساس نقابات عمالية تحكم نفسها بنفسها . . .

وكان « باكونين » يؤمن إيماناً قاطعاً لا يتزعزع بأن « شهوة الهدم شهوة إنشائية » . وحجته فى ذلك ، أن العالم القديم يجب أن يُهدم برمته سعياً وراء غاية نبيلة هى إقامة نظام جديد ! .. وعلى الرغم من أنه — شأنه فى ذلك شأن « لافروف » — طالب أتباعه بأن ينشروا الوعى الاشتراكى بين الجماهير والكتل الشعبية ، فإنه كان يقول لهم « إذهبوا إلى الشعب . . . ولكن لا تثقوا فى طريقة لافروف القائمة على أساس الدعاية البطيئة المنظمة . . . إن الطريقة المثلى هى إيقاظ الرغبة فى الثورة فى نفوس الفلاحين وتحريضهم على الثورة بأسرع الطرق وأقواها أثراً » .

ومهما يكن أمر النزاع بين « باكونين » و « لافروف » ، فإن الاثنين اتفقا على دفع عجلة « الشعبية » إلى الأمام ، والمطالبة بالاتجاه إلى الشعب . وسرعان ما صادفت هذه النزعة هوى فى نفوس المثقفين الروسيين حتى صارت إنجيلا للغالبية منهم وخاصة طلاب الجامعة المراهقين الذين أحلوها محل الدين . وشيئاً فشيئاً ، أصبح شعارُ « اذهبوا إلى الشعب » يحظى باستجابة حماسية انتقلت عدواها من مثقفى الطبقة العاملة إلى الطبقة الوسطى ثم إلى الطبقة الأرستقراطية ، فبدأ بعض الأرستقراطيين يلينون أمام تفشى الاشتراكية ، لا بدافع من الشفقة على الطبقة العاملة الفقيرة فحسب ، ولكن بدافع من الشعور بالإثم الذى كان يأكل قلوبهم ، والذى حدا بهم إلى أن يشعروا بأن الواجب الأخلاقى يحتم عليهم مساعدة الفقراء والمعوزين والمحرومين ، حتى لا يستشعروا خجلا من النعم التى يستمتعون بها على حساب الشعب الفقير المظلوم .

وهكذا بدأ بعض الأرستقراطيين والنبلاء يديرون ظهورهم للطبقة التى كانوا ينتمون إليها . وهذه ظاهرة ملموسة بوضوح فى الاتجاه نحو الشعبية .. فمعظم المصلحين الاجتماعيين ابتداءً من « بستل » حتى « ليوتولستوى » ، وكذا معظم الثوار ابتداءً من « باكونين » حتى « لينين » قد انحدروا من طبقات أرستقراطية ،

ثم لم يلبثوا أن استولت عليهم رغبة جارفة فى « التفكير الاجتماعى » المصحوب برغبة صادقة فى البحث عن « حياة نظيفة » . . .

فرجال الطبقة الأرستقراطية ونساؤها كانوا فى العقد السابع يقدمون على التضحية و « التكفير » بحماس وشغف ، كما كان نشاطهم السياسى يتسم بطابع « التكفير » الإنسانى عن طريق الشفقة والحكمة والاعتدال والاستعداد للتضحية .

وسرعان ما أصبحت عبارة « خدمة الشعب » ذات سحر على شفاه النبلاء والأرستقراطيين النادمين . وازداد رنين هذه العبارة تألقاً وواقعية عند ما لاكتها ألسنة المثقفين من رجال الدين. وبعد أن كانت فكرة « الشعبية » مجرد نظرية ذات سحر وبريق على عقول المثقفين وحدهم فى العقدين الثالث والرابع ، أصبحت فى العقد السابع اتجاهاً عاما سيطر على أخيلة غالبية الشعب ومعظم أفراد الطبقة الأرستقراطية . ومن هنا حدث أهم تطور فى التشكيل الطبقى . . ولأول مرة فى تاريخ روسيا ، نشأت علاقة عادلة بين عنصرى الأمة : الطبقة المثقفة من جانب والكثرة العاملة الكادحة من جانب آخر . . . وكان هذا الاتصال بين عنصرى الأمة هو أول تطبيق عملى للحركة الشعبية .

الفصل الثانى

الحركة « الشعبية » تشتغل بالسياسة

أصبحت حرية الشعب وسيادته اللتان من أجلهما كرّس المثاليون المثقفون حياتهم ، الشغلَ الشاغل لرجال الفكر وأفراد الطبقة الوسطى . . . وسرعان ما وصل آلاف من الرجال والنساء فى شتى بقاع روسيا من تلقاء أنفسهم وبغير توجيه منظم إلى نفس القرار : لقد كانوا جميعاً يريدون « الذهاب إلى الشعب » والإسهام معه فى الكدح والتضحية . . . كانوا جميعاً يريدون أن يصلوا إلى الفلاح والعامل لاستثارة النزعات الاشتراكية فى نفوس العمال والفلاحين . . وسرعان ما أتت التصورات النظرية بنتائج عملية ، وسرعان ما بدأت الحركة الشعبية الوليدة — بعد أن ظفرت بنجاح عملى — تصبح « هوساً » سيطر على عقول كثير من ذوى المراكز الهامة فى الدولة كالقضاة وكبار موظفى الحكومة وضباط الجيش والأطباء والمدرسين وأساتذة المعاهد العليا .

وفى صيف عام ١٨٧٣ ، بدأ بعض أفراد الطبقة الأرستقراطية يطبّقون نزعاتهم الشعبيةالجديدة تطبيقاً عمليًّا .

فالأمير « بطرس كروبتكين » الذى كان حقُّ أسرته فى العرش يفوق حق أسرة « رومانوف » ، اشتغل نقاشاً فى ضواحى العاصمة ! . . و « صوفى بريفوسكايا » ابنة الحاكم العسكرى لمدينة « سان بطرسبرج » اشتغلت عاملة فى أحد مصانع الجبن !

و « كاترين برشكوفوسكايا » التى لُقِّبت فيما بعد « جدة الثورة الروسية » و « ليسوجب » المليونير الذى وصف « ليوتولستوى » مصيره المحزن فى كتابه « إلهى وبشرى » ، وآلاف غير هؤلاء وهؤلاء ، ذهبوا ليعيشوا فى القرى المنبوذة ! .

ولكن نتائج هذه التضحيات الجماعية من جانب الشعبيين بدت هزيلة ضعيفة ، لأن الجهود التى بذلها الشعبيون كانت مبعثرة وغير منظمة ، فلم يأبه الناس لها ، بل وقف منها البعض موقف العداء .

وكان من الطبيعى أن يقابل رجالُ البوليس القيصرى نمو الحركة الشعبية بشتى أنواع العسف والاضطهاد ، ومن ثم لم يتسع نطاق هذه الحركة ، حتى لقد أدرك الشعبيون فى عام ١٨٧٥ أن حركتهم لن تثمر إلا إذا سندتها قوة شعبية ثورية . وهكذا وحّد قادةُ « الشعبية » قواهم ووضعوا نواة حزب سياسي أطلقوا عليه اسم « الأرض والحرية » . وكان هذا هو شعارهم المفضل باعتباره رمزاً للثورة الاشتراكية ؛ ولكن الحزب الوليد لم يكن يمثل

الشعبيين كلهم ، لأنه كان أكثر جنوحاً إلى الثورة من الشعبيين الأوائل الذين كانوا يطالبون بنشر الوعي الاشتراكي كمرحلة أولى من مراحل تحقيق الثورة . وبدت الاتجاهات الثورية التي سيطرت على الحزب واضحة جلية ، حينما راح أعضاء الحزب ينشئون المطابع السرية والفرق المسلحة والجمعيات التي لا عمل لها سوى تمكين المعتقلين السياسيين من الهرب من سجونهم في سيبريا وغيرها من البلدان ، و « التجسس المضاد » . وكان من الطبيعي أن يخضع الحزب لجماعة ثورية محترفة ، فأنشئت لجنة مركزية لإدارة الحزب وتنظيم المظاهرات الجماعية كوسيلة من وسائل لفت الأنظار إلى آلام الشعب .

وفي عام ١٨٧٥ قررت اللجنة التنفيذية القيام بغزو جماعي فتقدم الشعبيون الثائرون صوب القرى والمصانع مرة أخرى . . وكانت هذه هي « الحملة الثانية » .

وعلى الرغم من وسائل التنظيم الحديثة ، وما كانت الحركة الشعبية تحظى به من تأييد أوّلي تمثل في تشجيع الرأي العام لها ، فإن « الحملة الثانية » لم تحقق الآمال التي كانت معقودة عليها . فقد أحبطت الحكومة القيصرية خطط الشعبيين الثائرين . وخلال ست سنوات من بدء الحركة الشعبية ، قُبض على أكثر من سبعة عشر ألف شخص كان مصيرهم السجن أو المنفى ! . . .

وإذ أصيبت الحركةُ الشعبية بخيبة الأمل تلك ، بدأ قادة حزب « الأرض والحرية » يشعرون بالحاجة إلى إعادة النظر فى خططهم ، فقامت بينهم مناقشات حامية هددت وحدة صفوفهم. فمثلاً كان « باكونين » يرى الانتقال إلى « العمل المباشر » ، ودبّر بعض أنصاره بالفعل ثورة صغيرة فى أوكرانيا ؛ بينما كان الماركسيون الذين تعاونوا مع هذا الحزب ، يصرّون على ضرورة نشر الدعوة الاشتراكية بين عمال المصانع أولاً ؛ على حين كان اليعقوبيون من أمثال « بطرس تاكاشيف » ينادون بأن قيام نظام « أوتوقراطى » بلا أساس اشتراكى خليق بأن يحقق الثورة الاشتراكية ، إذ تستطيع جماعة من أقوياء الثوار القبض على زمام السلطة ثم تقوم فيما بعد بالإصلاحات السياسية والاجتماعية.

وفى كلمات قلائل ، ما إن حل عام ١٨٧٦ حتى كان الدعاة الشعبيون المثاليون قد اختفوا من الميدان وحلّ محلهم قادة آخرون أميل إلى العدوان واستخدام القوة فى محاربة السلطات الحاكمة ، مما حمل الحكومة القيصرية على تأليف محاكم عسكرية لمحاكمة الثائرين ، كما تم إنشاء هيئة « الأوكرانا » الشهيرة (إدارة الأمن العام) ، وهى عبارة عن قوة من البوليس السرى كانت ذات موارد مالية وبشرية غير محدودة ، كما كانت تملك سلطات واسعة النطاق تتيح لها أن تفرض رقابة شديدة

محكمة على البلاد كلها .

ولكن هذه الإجراءات المشوبة بالعسف والظلم التى لجأت إليها السلطات الحاكمة ، زادت نفوس الثوار مرارةً ، وشجعتهم على رد الإساءة بالمثل ، والتوسل بالعنف فى الرد على العنف . وهكذا أرغمت حوادث ١٨٧٥ – ١٨٧٦ الشعبيين ذوى الميول الثورية ، على الاعتراف بأن « الأوتوقراطية » هى عدوهم الأول المباشر ، وأنه لا أمل فى قيام انقلاب اشتراكى على الإطلاق ، ما لم يسقط النظام القيصرى . وعلى هذا ، فالنضال من أجل الحرية السياسية التى كان « لافروف » يميل إلى إهمالها ، والتى كان « باكونين » يرفضها باحتقار ، أصبحت عملاً فرضه تطور الحوادث على الشعبيين ، فأمسوا يتحدثون عن الانقلاب السياسى والحريات الديموقراطية ، كخطوة فى الطريق المؤدى إلى الاشتراكية .

وهكذا توسل الشعبيون – الذين كانوا لا يؤمنون بجدوى الإصلاحات الديموقراطية من قبل – بالديموقراطية ، لا كغاية ولكن فقط كوسيلة تحقق لهم الثورة الاشتراكية التى كانوا ينشدونها . واضطروا فى سبيل ذلك إلى أن يناضلوا من أجل الديموقراطية نضالاً قوياً ، عساهم يستطيعون عن طريق الإصلاح الديموقراطى أن يحققوا هدفهم الأسمى . وعلى حين كان النضال من أجل الديموقراطية فى الممالك الأخرى ، يقوم به ويؤيده

رجال الطبقة البورجوازية والطبقات التالية لهم مباشرة ، اضطر الاشتراكيون فى روسيا إلى التوسل بالديموقراطية — ضد رغباتهم — لكسب المعركة الأساسية . ولكنهم حينما اقتنعوا بأن الضرورة فرضت عليهم أن يقوموا — رغم إرادتهم — بالعمل الذى كان البورجوازيون يقومون به ، لجأوا إلى القوة والوسائل الثورية والعنف.

وفى عام ١٨٧٩ ، نشب صدام بين جناحى الحركة الشعبية. فبينما طالب المتطرفون بالالتجاء إلى الثورة وتجاهل الإصلاحات الديموقراطية ، أصر الشعبيون القدامى على ضرورة التوسل بالإصلاح السياسى . وانتهى هذا الصدام بوقوع انقسام فى صفوفهم ، فألف المتطرفون بزعامة « بلكهانوف » و « زاسوليتش » وبعض الماركسيين جماعة « الفرقة السوداء » التى لم يقدر لها أن تعمر طويلا . أما الجناح غير الثورى ، فقد ألف حزب « إرادة الشعب » بزعامة « أندريه زليابوف » و « إسكندر ميخايلوف » و « نيقولا موروزوف » .

وبينما كانت جماعة « الفرقة السوداء » تنادى بأن المطالبة بحقوق الشعب والحريات السياسية والانتخابات العامة وما إلى ذلك من الوسائل الديموقراطية ، لم تكن أموراً ذات أهمية مباشرة ، وبأن الاشتراكيين الذين يناضلون من أجل الحرية الديموقراطية كانوا أدوات فى أيدى البورجوازية التى تفيد وحدها من قيام

نظام ديموقراطى على حساب الغالبية العاملة . . . بينما كانت « الفرقة السوداء » تنادى بذلك ، كان حزب « إرادة الشعب » يؤكد أن النضال السياسى الديموقراطى تحت قيادة الاشتراكيين خليق بأن يأتى بنتائج واسعة النطاق . فطالما كان الاشتراكيون تظاهرهم الطبقات العاملة ، يخوضون غمار المعركة من أجل الحرية ، فإن سقوط « الأوتوقراطية » يصبح ضربة لازب وبعدها يصبح الطريق ممهداً أمام إصلاحات اشتراكية واسعة النطاق ، أهمها الإصلاح الزراعى الاشتراكى .

وكان الجديد الذى طرأ على الحركة الشعبية ممثلةً فى الجناح المتطرف ، هو الجنوح إلى « النشاط الهدام المخيف » لإنزال الرعب فى قلوب المعارضين ، ومعاقبة الموظفين المتهمين باستخدام القوة والعنف . وكان الغرض من هذا «النشاط الهدام» هو إيقاظ الروح الثورية فى نفوس الشعب ، عن طريق زعزعة إيمانهم فى قوة القصر الإمبراطورى ، وتقديم الدليل تلو الدليل على أن معارضة السلطة الحاكمة أمر ممكن .

وسيطر على أخيلة هؤلاء الشعبيين المتطرفين حماسٌ ثورىٌّ مشوبٌ بنزعة كهنوتية . ولم يكن ذلك جديداً عليهم ، فقد درج الروسيون كشعب ، على أن يُدْخِلوا على نضالهم نوعاً من التديين بكل ما فيه من روح متفانية وتكريس مصحوب باستعداد قوى

للتضحية بالنفس ، والإسهام الحماسى فى الجهود المبذولة من أجل تحقيق المبدأ ، والتشبث بالحد الأقصى من العمل ، والتزمت فى الأفكار والطقوس بشكل بيزنطى لا مثيل له فى التقاليد الغربية .

وكانت النزعة الكهنوتية فى الكفاح السياسى تتلاءم مع طبيعة الشعبيين المتطرفين ، فالفدائية لم تكن مجرد ضرورة سياسية بقدر ما كانت ضرورة أدبية جعلتهم يشعرون بأن حقهم فى الاغتيال السياسى مستمدٌّ من استعدادهم للموت ، فالفدائية تضحية . ومن ثم كان عليهم أن يقهروا فى نفوسهم شتى عوامل الخوف والشفقة ، وكان عليهم أن ينكروا الروابط العائلية والحب والأمن ، وأن يربطوا إرادتهم وأفكارهم وسلوكهم بهدف واحد ، هو أنهم يجب أن يعيشوا فى ريبة وحذر ، كما لو كانوا حيوانات مُطَارَدَة تهددها قوى عديدة ذات خطر غير محدود .

وهكذا كان حماسهم الاشتراكى ذا صبغة كهنوتية قوية . ومن ثم كان إصرارهم على الكفاح ، وكان استعدادهم للموت فى سبيل انتصار قضيتهم . فهؤلاء الثوريون الذين كرسوا أنفسهم لإنزال الفزع بخصومهم ، كان لديهم إحساس عملى حاد ، فهم رغم مواردهم المحدودة ، والعقبات التى كان عليهم أن يتخطوها ، قد نجحوا فى إقامة نظام سرى معقد واسع النطاق شمل المطابع

ومصانع المفرقعات وأماكن خاصة للاجتماع كانت تتغير وتتبدل بتغير الظروف والمناسبات ، ولغة خاصة للتخاطب ، ونقطاً للمراقبة ، ومراكز وإمدادات لتزوير جوازات السفر ، وما إلى ذلك من ضروب النشاط الثورى .

وآنس هؤلاء المتطرفون فى أنفسهم القدرة على القيام بعمل مباشر ، فقررت جمعيتهم التنفيذية فى شهر أغسطس ١٨٧٩ اغتيال الإمبراطور « ألكسندر الثانى » . ومنذ تلك اللحظة التى حكموا فيها بالإعدام على الإمبراطور ، وجهوا جميع جهودهم نحو هدف واحد ، هو « تصفية القيصرية » والقضاء عليها .

وبين عامى ١٨٧٩ و ١٨٨١ بُذلت عدة محاولات لاغتيال الإمبراطور . فوضعت ألغام متفجرة تحت عجلات القطارات الإمبراطورية ، ونَسَفَت القنابل الموقوتة غرفة الطعام الإمبراطورية فى القصر الشتوى . وفى الوقت ذاته ، قُتِل كثير من موظفى الحكومة . وبالرغم من تعبئة جميع قوى الدولة والبوليس ، وما أسفر عنه ذلك من إلقاء القبض على آلاف الشعبيين ، فإن « الفرقة السوداء » مضت فى نشاطها الثورى ضد النظام الإمبراطورى القيصرى .

أما القيصر « ألكسندر الثانى » الذى كان يشعر أنه أصبح مُطارَداً ، والذى كان يغيّر موقع غرفة نومه كل مساء ، فقد

كانت أعماله تتفاوت بين القمع وتحضير الإصلاحات ! .
فبعد الانفجار الذى حدث فى القصر الشتوى ، منح القيصر سلطات ديكتاتورية للجنرال « لوريس مليكوف » الذى أعدّ مسودة لدستور تُحكم البلاد بمقتضاه حكماً صالحاً ، وإن كان قد ظل يطارد الشعبيين والاشتراكيين بيد من حديد فى الوقت ذاته .

وفى أول مارس عام ١٨٨١ ، أغتيل الإمبراطور فى أحد شوارع بطرسبرج ، فقد ألقى عليه الفدائيون القنابل . . . وكان فى هذا العمل الثورى تدميرهم . فمن بين قادة اللجنة المركزية الستة والثلاثين ، شُنِق خمسة كان من بينهم « أندرية زليابوف » و « صوفى بيروفسكايا » (برغم التماس الرحمة لهم الذى قدّمه « ليوتولستوى » و « فلاديمير سولوفيوف » للقيصر الجديد) ؛ كذلك أصيب واحد منهم بالجنون ، ومات إثنا عشر فى السجن بينما حُكِم على الآخرين بالأشغال الشاقة المؤبدة فى سيبريا ، فيما عدا ثلاثة استطاعوا أن يهربوا إلى أوربا . .

الفصل الثالث

هزيمة الشعبيين الثائرين

كان اغتيال الإمبراطور « ألكسندر الثانى » نصراً هزيلاً للثوار ، لأنه لم يحقق آمالهم . فالشعب ظل ساكناً ، فلم يشعل نار الثورة ؛ والنظام القيصرى ظل ثابتاً لم يتغير . أما الإمبراطور الجديد « ألكسندر الثالث » فقد قرر بعد تردد قصير الأمد بين سياستى « لوريس ماليكوف » الذى كان يقترح الجنوح إلى الاعتدال فى معاملة الشعب ، و « قسطنطين بوبيدونوسكزيف » زعيم المحافظين الذى كان يطالب بأخذ الشعب بالشدة والقسوة — أن يستمع إلى نصيحة الأخير ، وعقد العزم على أن يحكم العناصر الشاردة بالحديد والنار . فبعد مرور شهرين على اغتيال أبيه ، أعلن « ألكسندر الثالث » أنه سيحكم البلاد وهو « على يقين من قوته الأوتوقراطية وسلامتها كنظام الحكم » . ثم سار فى البلاد سيرة العسف والجبروت . وجمع مؤيدو الحكم الأوتوقراطى شتات قواهم وأعلنوها حرباً على الاشتراكيين والأحرار . . . وأما قائدهم « قسطنطين بوبيدونوسكزيف » رئيس المجمع المقدس ورئيس

الكنيسة الروسية تبعاً لذلك ، فقد أخفى شغفه بالسلطة تحت قناع من التواضع المسيحى . وإذ كان واسع الثقافة لامع الذكاء فقد أدرك خطر الثقافة والعلم ، فقرر أن يحول بين الشعب والعلم ؛ لأنه كان – مثل ديستويفسكى الأكبر – يعتقد أن الناس فاسدون ثائرون خليقون بعمل كل شر بطبعهم ، وأن الثقافة تزود الثائرين بسلاح فتاك ، كما كان يؤمن إيماناً قاطعاً بأن استخدام القوة هو الوسيلة الوحيدة للإبقاء على النظام الإمبراطورى ، وأن الإرهاب هو السلاح الوحيد للقضاء على خطر الثورة .

وكان « بوبيدونوسكزيف » ذا عقل اختلطت فيه الجزويتية الدينية بالبيزنطية ، فاعتقد أن الروسيين ثوار مشاغبون بطبعهم ، وأن خطر الثوار منهم لا بد بالغ مداه إلى حد الثورة ، ما لم تتحد الكنيسة والدولة باعتبارهما السلطتين الأساسيتين ، فتتحقق لهما بذلك فرصة حكم الروح والجسد . . ولكى يضمن السيطرة على التعليم ، أنشأ شبكة من المدارس الكنسية التبشيرية فى القرى . وأما الكونت « ديمترى تولستوى » – وزير التربية العامة حينذاك ، والذى اشتهر بعداوته للعلم – فقد وضع مناهج دراسية تكفل القضاء على الآراء والمبادئ الهدامة وتخضع لرقابة صارمة . ثم خلفه « دليانوف » الذى اشتهر بالقرار الذى اتخذه عام ١٨٨٧ بعدم قبول المدارس أولاد الحوذية والخدم والبقالين

والطباخين ومن على شاكلتهم ، إلا إذا كانوا ذوى مواهب استثنائية خارقة !

وكانت طبقة النبلاء – الذين كانوا يُمنَحون مخصصات مالية – تشجع سياسة الحكومة . كما كان ضباط البوليس الريفى الخاص الذين اختيروا من طبقة النبلاء ومُنِحوا قوةإدارية واسعة النطاق ، يلهبون ظهور الفلاحين بالسياط ! .

وفى الجانب الآخر ، كان الفلاحون الصغار لا يزالون يتقاضون أجوراً ضئيلة . وكان معظم الفلاحين الأشد فقراً يعملون كرقيق فى الأرض بأجور أكثر ضآلة . واشتدت الأزمة الزراعية بانخفاض سوق القمح الدولية ، ممأأدى إلى ثورات اقتصادية تفشت فى أقاليم شاسعة . ففى عام ١٨٩١ و ١٨٩٢ انتشرت المجاعة فى مساحة من الأرض يقطنها خمسة وثلاثون مليوناً من السكان ، فهلك مئات الآلاف جوعاً أو بسبب أوبئة التيفوس والكوليرا . واضطر المعدمون فى القرى إلى الهرب إلى المدن حيث تلقفتهم المصانع لتستغلهم أسوأ استغلال فى زيادة الإنتاج الصناعى ، حتى بلغ ذلك الإنتاج ما قيمته مليوناً ونصف مليون روبل ذهباً . كذلك أدى استرقاق الفلاحين فى الإنتاج الصناعى إلى زيادة الطرق الحديدية زيادة كبيرة ، وإلى تقدم صناعة النسيج والصلب والفحم تقدماً هائلا .

وهكذا تدهور الإنتاج الزراعى من جانب ، بينما ازدهر الإنتاج الصناعى من جانب آخر ، وكان من الطبيعى أن يسفر التقدم الصناعى عن تعديل النظريات الاشتراكية والنظريات الحرة تعديلا أثّر تأثيراً قوياً فى محبذى النظام الإمبراطورى ، الذين رأوا مصرع الإنتاج الزراعى ومولد التوغل الصناعى ، والذين كانت الدعوة إلى التمسك بأهداب الدين قد أخذت بألبابهم ، فتحول الأمير « فاسيلى مشرسكى » رئيس تحرير جريدة « المواطن » ومؤلف بضع مقالات سياسية كان من أوسعها انتشاراً « حديث محافظ » و « الدليل ضد الأيام » ، إلى داعية من دعاة الدين . وتفوق عليه فى هذا المجال « قسطنطين ليونتيف » أحد أصحاب الأملاك ، فقد ضحى بمستقبل دبلوماسى لامع ، واعتزل فى أحد الأديرة ، حيث دمر حياته بسلسلة من العذاب ، انتهت حينما مات فى الدير ، وهو يحمل اسم « الأب كليمنت » !

وكان « ليونتيف » يكتب قصصاً ومقالات سياسية وأدبية ذات مستوى فنى مرتفع ، ولكنه على الرغم من عقليته الابتكارية لم يستطع أن يستحوذ على حب القراء كمفكر سياسى ودينى ورجل من رجال الأدب ، لأن القراء لم يكونوا قد غفروا له تأييده للأوضاع التى كانت قائمة حينذاك ، وأنه أحب أملاكه الموروثة كما أحب « تولستوى » أملاكه ، وأنه كان يمقت أية

محاولة من شأنها أن تهدم طريقته فى الحياة كإقطاعى ثرى ، سواء أكان هذا التهديد آتياً من ناحية « الفوضويين القذرين » الذين كان يريد أن يلهب ظهورهم بالسياط ، النساء منهم والرجال على السواء ، أم من ناحية « البورجوازية الحقيرة » التى كانت تطالب بالإصلاح الديموقراطى ، فقد كان يعتبر الديموقراطية والحرية نتيجة مباشرة للانحلال العام الذى خلقته الثورة الفرنسية حينما دفعت الطبقة الثالثة إلى الطليعة ! . . . وبلغ من مقته للطبقة الوسطى والبورجوازيين أنه كان يحذر « الأوتوقراطية » من منح أية امتيازات لأفراد هذه الطبقة . كما كان يوحى لعامة الشعب بأن « الخوف رأس الحكمة » ، لكى يحمله على الخضوع والخنوع للحكم الأوتوقراطى . ولقد قال فى إحدى مقالاته الشهيرة « إن القوة الملكية الحازمة الصارمة إلى حد الوحشية ، وسلطة الكنيسة المطلقة ، هما العنصران الوحيدان الخليقان بأن يحافظا على كيان الأمة » . كذلك كان ممعناً فى الإقليمية ، فطالب بأن يسود مبدأ عزلة روسيا بعيداً عن الغرب وكل المبادئ الأخرى . وكان يقول فى ذلك « يجب أن يتجمد المجتمع الروسى أو يتبلور حتى يحتفظ بكيانه . . . ويجب أن نتعلق بتقاليدنا وتراثنا . . . وبدلاً من أن نرقص ، يجب أن نصلى . . . وإذا كان لا بد من أن نرقص ، فلنرقص بطريقتنا الخاصة لا بطريقة الغرب ! » .

وتفوق على « ليونتيف » فى نزعته القومية الانعزالية ، مفكرٌ محافظ آخر هو « نيقولا دانيلفسكى » المؤرخ والعالم الطبيعى الذى كان يعارض بشدة نظرية « دارون» عن النشوء والارتقاء . فقد كان يعتقد أن هناك أنماطاً أولية ثابتة ، وأن كل نمط من هذه الأنماط لعب دوره فى التاريخ . وكان يميز عشرة أنماط ثابتة منها : الهندى والإيرانى والعبرى والإغريقى والعربى والجرمانى واللاتينى والروسى السلافى . ولكنه كان يشك فى أن أمريكا الشمالية أنتجت نمطاً يمكن أن يُضاف إلى هذه الأنماط . وعند ما درس هذه الأنماط دراسةً مستفيضة ، حاول أن يحصر الدور الذى لعبته فى التاريخ فى أربعة حقول : الدين والثقافة (العلم والفن والصناعة) والسياسة والاقتصاد . وعلى الرغم من أنه حاول أن يركز نشاط بعض الأنماط فى حقل واحد ، فإنه ذهب إلى أن النمط الروسى هو النمط الوحيد الجدير بأن يصل إلى أهداف عالية فى الحقول الأربعة للنشاط الإنسانى . ومن ثم كان « دانيلفسكى » يعتقد أن الدور الذى تلعبه روسيا فى تشكيل التاريخ الإنسانى دورٌ على درجة عالية من الكمال .

وإذ كانت سياسة روسيا الرسمية تشجع النزعة القومية ، فقد انتشرت آراء « دانيلفسكى » الانعزالية ، حتى لقد شجعه ذلك على أن يقول « إن فكرة السلافية فكرة عظيمة ينبغى أن

تتبوأ مكاناً أعلى من الثقافة والحرية والعلم » . ونال كتابه « روسيا وأوربا » الذى نُشر عام ١٨٧١ ثم أعيد نشره ثانية وثالثة فى عامى ١٨٨٨ و ١٨٨٩ تقدير الجمهور واستحسانه بعد موت مؤلفه . وتُرجم الكتاب إلى اللغة الألمانية بعد ثورة ١٩١٧ ، وكان له تأثير كبير على « دوروالد شبنجلر » الذى طبق كثيراً من آراء « دانيلفسكى » عن الأنماط الثقافية وخط سير التاريخ .

وشيئاً فشيئاً أصبحت النزعة القومية ذات نفوذ قوى فعال ؛ فتوسلت بها الدولة لكى تقيم حاجزاً قوياً بين روسيا وأوروبا ، يقف فى وجه الأفكار الهدامة المستوردة من الغرب . وقام « ميخائيل كاتكوف » حامى حمى الأتوقراطية ومحرر جريدة « موسكو » ورئيس تحرير « نيو تايمز » جريدة بطرسبرج اليومية بدعاية واسعة النطاق للقومية الروسية ، واتخذ له شعاراً خلاباً هو « روسيا للروسيين » . وكان هذا صدى للتفاخر بالنجاح فى السياسة الدولية ، وخاصة أن روسيا استطاعت فى العقد الثامن أن تتفوق على إنجلترا فى آسيا ، وأن تدعم أقدامها فى البلقان بالرغم من توتر العلاقات بينها وبين النمسا ، وأن تجدد علاقاتها مع فرنسا ، وأن تفتح لها أسواقاً اقتصادية جديدة . ولم يكن تشجيع النزعة الروسية القومية مقصوراً على روسيا نفسها ، وإنما شمل التعصب القومى أقاليم آسيا الوسطى الشاسعة التى كانت

قد أصبحت أقاليم روسية ، كما مُنع استعمال اللغات القومية فى روسيا البيضاء ولتوانيا ، وحاول الجهلة من الحكام القضاء على روح الاستقلال فى بولندا ، وعومل المسيحيون من غير أتباع المذهب الأرثوذكسى معاملة لا تقل سوءاً عن معاملة الدولة لأتباع الأديان غير المسيحية .

وشيئاً فشيئاً أصبحت « القومية » دعامة من دعامات الحكم فصارت هذه الدعائم هى « الأوتوقراطية » ، والأرثوذكسية . . . و « القومية » . ولكن هذا الاتجاه لم يلبث أن شابته عدة شوائب مثل التطرف فى الزهو القومى ، واحتقار أوروبا ، والكبرياء المقرونة بالغطرسة ، والإقليمية الانعزالية ، وهى شوائب ينفسح أمامها المجال كلما انتشرت النزعة القومية انتشاراً واسع النطاق .

ولكن النتائج التى أسفرت عن حرب روسيا — تركيا (١٨٧٧ — ١٨٧٨) وإرغام روسيا على النزول عن بعض امتيازاتها فى الشرق ، جعلت السلافيين الأحرار يتذمرون ، حتى ليمكن أن يقال إن حرب تحرير العناصر السلافية فى البلقان ألقت بالسلافيين مرة أخرى فى صفوف المعارضة ، فقام مثقفون أحرار يتهمون الحكومة القيصرية باستعباد الكنيسة ومعاملة الشعب معاملة وحشية ، كما جعل بعض السلافيين الأحرار من أنفسهم حلقة اتصال بين الحكومة القيصرية والمعارضة المعتدلة ، وحاولوا

ربط اليسار البيروقراطى باليمين الحر . وفى عام ١٩٠٥ انضم عدد كبير منهم إلى جماعة « حزب أكتوبر » ، وإن كانوا قد ظلوا سلبيين فى العقد الثامن . أما الذين كانوا يميلون ناحية الغرب ذى الطابع الحر ، فلم يكونوا أسعد حظاً ، إذ عمدت الحكومة القيصرية فى عام ١٨٨٤ إلى تشتيت شملهم والقضاء على « عصبة الأحرار » التى كانوا قد ألفوها و « اتحاد الزمستوف » الذى كان يدعو إلى ملكية دستورية ، والذى كان من خطبائه « مالكنسكى » و « فراجومانوف » اللذين نشرا خارج روسيا كتاب « العالم الحر » . وعلى الرغم من أن أفراد الطبقة العليا من البورجوازيين (التجار وأصحاب المصارف والصناعات) كانوا يودون الانضمام إلى المثقفين من النبلاء والأشراف وأعضاء « اتحاد الزمستوف » ، إلا أنهم نكصوا على أعقابهم بعد أن ضربت الحكومة القيصرية بشدة على أيدى المطالبين بالإصلاح.

وأما الراديكاليون والاشتراكيون ، فقد كانت تتناولهم يد التغيير والتبديل . فإن غالبية المثقفين الذين أصابتهم هزيمة حزب « إرادة الشعب » بضربة شديدة ، شعروا بالضيق والاشمئزاز والعزلة ، واستولى عليهم يأس قاتل جعلهم يكفون عن كفاحهم . بل لقد استجاب بعضهم إلى تعاليم «تولستوى » ببعث الروح الأخلاقية ما داموا قد فقدوا إيمانهم فى العمل السياسى ؛ وخاصة

فى تغيير نظام الحكم عن طريق العنف والثورة . وسرعان ما انتشرت فلسفة « عدم مقاومة الشر » واكتسبت أنصاراً كثيرين. وسرعان ما بدأت الدعوة إلى « الإصلاحات الصغيرة » التى كانت تبشر بها صحف الحكومة القيصرية كحركة مضادة للاشتراكية ، تصادف هوى فى نفوس أولئك الذين خاب أملهم فى البطولة والتضحية ، وأولئك الذين أدى بهم الشعور باليأس إلى الاستسلام المطلق وعدم المبالاة .

ومع ذلك ، كانت هناك أقلية قد عقدت العزم على المضى قدماً فى تحقيق الشعبية الثورية . فبالرغم من سجن الكثير من الشعبيين القدامى ، بُذلت جهودٌ عديدة لإحياء حزب « إرادة الشعب » . وكانت الحوادث التى وقعت خلال الفترة الواقعة بين عامى ١٨٨٢ و ١٨٨٧ ، دليلاً على أن النشاط الثورى كان لايزال على أشده ، ولكن من وراء ستار! . . . ففى عام ١٨٨٧ دبر فريقٌ من الثوار تحت إمرة « لوكاشفيش » و « شفيريف » محاولة لاغتيال القيصر ألكسندر الثالث ، ولكن المحاولة لم تنجح ، فألقى القبض على المتآمرين جميعاً ثم أعدموا . ولم يكن القيصر « ألكسندر الثالث » يدرى وهو يوقّع وثيقة إعدام « ألكسندر اليانوف » أن « فلاديمير » الشقيق الأصغر لذلك الإرهابى والذى كان يبلغ فى ذلك الحين السابعة عشرة من عمره ،

قد قُدّر له أن يصبح زعيم روسيا الشيوعية بعد ثلاثين سنة تحت اسم « نيقولا لينين » ! .

وعلى الرغم من أن هزيمة الشعبيين ممثلين فى حزب « إرادة الشعب » قد قضت على ذلك الحزب قضاء مبرماً ، فإن الدوائر الشعبية ظلت تنشر آراءها سراً ، وبحماس أقوى من ذى قبل ، حتى ليمكن أن يقال إن العهد الذى شاهد كبت النشاط الثورى كان فى الوقت ذاته عهد انتشار الآراء الاشتراكية. فبينما كانت الطبقات الحاكمة مبتهجة بالهدوء الظاهرى ، كان المثقفون — شيباً وشباناً — يجتمعون سراً ، ويناقشون مشاكل الثورة ، ويسهمون فى النزاع بين الشعبية التى كانت تؤذن بالاختفاء ، والماركسية التى كانت تزحف رويداً رويداً إلى الأمام !

الفصل الرابع

مولد الاشتراكية الجديدة

كان « جورج بلكهانوف » فى طليعة قادة الشعبيين ، ولكنه بعد أن انقسم حزب « الأرض والحرية » على نفسه ، انضم إلى الجناح الثائر الذى ألّف « الفرقة السوداء » المتطرفة . . . ولكنه بعد هزيمة الشعبية ، سافر إلى أوروبا ليدرس الحركة الاشتراكية فى سويسرا وفرنسا وألمانيا . وفى عام ١٨٨٣ أسس حزب « التحرير والعمال » الذى كان أول منظمة ماركسية . ثم وضع كتابين أولهما « الاشتراكية والنضال السياسى » (١٨٨٣) وثانيهما « انحرافاتنا » (١٨٨٥) ، حلّل فيهما أسباب فشل الحركة الشعبية .

وقد عزا فشل الحركة الشعبية إلى أن روسيا كانت تسير فى طريق الرأسمالية الغربية ، ونأت بجانبها عن الآمال الشعبية فى التطور اللارأسمالى . كذلك هاجم نظرية دور الفرد فى التاريخ وسماها « التغرير المثالى » ، وطالب باعتناق فلسفة « كارل ماركس » القائمة على أساس خضوع تطور الأحداث التاريخية

لأشكال الإنتاج والتوزيع والصراع الطبقى .

ويبدو أن تطور الأحداث السياسية فى روسيا ، قد عزّز وجهة نظر « بلكهانوف » بعض الشىء . فالتصنيع الذى نما وازدهر ، خلق طبقة سفلى أصلها من المزارعين ، كان عدد أعضائها ينمو نمواً مستمراً . وصحب نمو هذه الطبقة خوفٌ عارم من جانب البورجوازيين الذين كانوا يخشون أن تحتل الطبقة الحديثة مكانهم ، فدخلوا فى منازعات مع طبقة النبلاء والإقطاعيين التى كانت — رغم الإعانات والمخصصات المالية والامتيازات الخاصة — توشك على الانهيار نتيجة لأزمة زراعية . وصحب هذا كله ازدياد حدة النزاع بين الشعبيين « الأنقياء » الذين كانوا يعتمدون على الفلاحين ، والماركسيين الذين كانوا يعتمدون على الطبقة الجديدة التى زادها التوسع الصناعى نمواً وقوة .

وفى عام ١٨٨٥ ، ازدادت حدةُ النزاع بين الشعبيين والاشتراكيين وخاصةً بعد أن نشر الاشتراكيون الروسيون فى أوروبا « منهج الحزب الاشتراكى الديموقراطى للعمال الروسيين » ذلك المنهج الذى استنكر بشدة آراء الشعبيين عن ضرورة جعل « الإصلاح الزراعى أساس الوعى الاشتراكى » .

وزج « بلكهانوف » بنفسه فى المعركة ، فسخر من آراء

الشعبيين عن ضرورة الإصلاح الزراعى قائلاً إن ما يزعم الشعبيون أنه « ميول اشتراكية » فى برنامجهم ليس سوى بقايا نظام اقتصادى موقوت ، مصيره إلى الانهيار تحت سنابك الرأسمالية ، وإن تركيز امتلاك الأراضى فى أيدى كبار الملاك ورحيل فقراء الفلاحين إلى المدينة سيكون آخر ضربة موجهة إلى الطريقة العتيقة للحياة الروسية ، وإن غالبية المزارعين سوف يُصهرون فى أتون الرأسمالية ، ثم قال « وعلى ذلك ، فالآمال المعقودة على الدور الذى قد يلعبه الفلاحون فى الثورة ليست سوى عبث وهراء . أما الطبقة الثورية الحقة التى ينبغى أن تمسك بزمام الموقف ، فهى طبقة العمال » .

وكان « بلكهانوف » وأصدقاؤه الماركسيون على اقتناع بضرورة النضال السياسى ، وكسب حريات ديموقراطية كأساس لنجاح الحركة الاشتراكية . وعلى الرغم من أن هذا الاتجاه ، ينطوى على اتفاق ظاهرى مع وجهة نظر الشعبيين الذين كانوا يطالبون بالإصلاح السياسى قبل ذلك بست سنوات ، فإن الاتجاهين كانا مختلفين فى جوهرهما بعض الاختلاف . فبينما كان الشعبيون يرون أن النضال السياسى سوف يؤدى إلى قيام ثورة تصطبغ بصبغة الإصلاحات الاشتراكية ، كان الماركسيون يرون أن الثورة سوف تكون « ثورة بورجوازية » تسندها الطبقة العاملة ...

ومن عجب أن المعايير انقلبت بعد ذلك بنحو ثلاثين سنة ، أى بعد عام ١٩١٧ . . . فالفلاسفة الماركسيون الذين كانوا جزءاً من الحزب الاشتراكى الديموقراطى ؛ كانوا يجاهدون للقيام بثورة اشتراكية؛ بينما كان الاشتراكيون – وهم خلفاء الشعبيين – يرون أن الثورة يجب أن تكون بورجوازية ! .

وبينما كان الماركسيون يميلون إلى تمجيد العامل ، كان الشعبيون يميلون إلى تمجيد الفلاح . وعند ما عُقد أول مؤتمر اشتراكى دولى فى باريس عام ١٨٨٩ ، أدهش « بلكهانوف » سامعيه بقوله «لن تحرز الحركة الثورية الروسية نصراً إلا كحركة عمالية » . . . دُهش السامعون لأن « بلكهانوف » ، وهو أحد النبلاء والضابط السابق فى الجيش القيصرى الذى هجر مستقبلا لامعاً ليكون ثورياً ، قد أصبح ماركسيًّا متطرفاً ، يؤمن بالآراء المادية مثل « ماركس » و « أنجلز » . وحذّر « بلكهانوف» المثقفين الروسيين من « الاشتراكية العاطفية » التى أسماها « اشتراكية القلب » ومن قادة الشعبية الذين وصفهم بأنهم يشيدون قصور الثورة فى الهواء ، كما طالبهم بألا يؤسسوا اشتراكيتهم على فكرة « المسئولية الأدبية إزاء الشعب » أو « رد الجميل » وتسديد الدين للشعب ، أو الواجب إزاء الشعب . فقد كان يريد منهم أن يتفهموا العوامل التى تؤدى إلى تغيير المجتمع

الاقتصادى ، وأن يدركوا أن روسيا إذ تفتح أبوابها للرأسمالية تساعد التاريخ على أن يؤدى رسالته . وعليها أن تتقبل النتائج المترتبة على ذلك ! .

ولقد أثارت هذه الآراء غضب المثقفين الذين كانوا يحاربون تفشى الرأسمالية إما على أساس عاطفى أو تقليـــدى : فالأرستقراطيون كانوا يعارضون تفشى الرأسمالية معارضة عاطفية لما فى التصنيع من قبح المنظر ؛ والأحرار والشعبيون والقوميون كانوا يحاربون الرأسمالية لأنها أصابت الحياة فى الريف بانحلال ممثّل فى هجرة الفلاحين إلى المدن حيث تلقفتهم المصانع التى قامت على أكتاف الرأسمالية .

وكان من الطبيعى أن يقف الشعبيون فى وجه الماركسية ، فوصفوا الماركسية بأنها « كريهة وقبيحة » . ولكن هؤلاء الشعبيين لم يلبثوا أن اعترفوا بجدوى الوسائل الماركسية العمالية ، عند ما شاهدوا الحركة الماركسية تزداد قوة . . . ومن ثم بدءوا يفكرون فى إعادة النظر فى نظرياتهم وخططهم . وهكذا تطورت « الشعبية » . وما إن حل عام ١٨٩٥ ، حتى حلّ محل الشعبية النقية — تحت وطأة هجوم الماركسيين عليها — طراز جديد من الشعبية هو « الشعبية الانتقادية » التى تزعمها « نيقولا ميخائيلوفسكى » الذى كان مركزه فى العقدين الثامن والتاسع

مشابهاً لمركز « شارليفسكى » أو « بيساريف » فى العقد السادس.

وقد كسب هذا الاشتراكى النبيل المولد شهرة واسعة كناقد أدبى ، وخاصة بعد أن نشر مقالاته اللامعة المشرقة مثل « اليد اليمنى للكونت تولستوى ويده اليسرى »(عام ١٨٧٣) و «العبقرية الفاشية » (١٨٨٢) وكذا دراساته عن الاشتراكية ، وخاصة « ما هو التقدم » (١٨٦٩) و « نظرية دارون والعلم الاجتماعى » (١٨٧٣) و « النضال من أجل الفردية » (١٨٧٦) و «الأبطال وعامة الشعب » (١٨٨٢) الذى أظهر فيه موهبة المجادل الذكى.

وإذ كان « ميخائيلوفسكى» يؤمن بآراء « لافروف » عن العلوم الإنسانية وخاصة «الفردية الاشتراكية» ، فقد استطاع أن يقدّم آراءً «اشتراكية » لا ماركسية قوية . ومثلما حدث فى العقد الرابع عند ما بدأ الروسيون يبحثون عن «دين اجتماعى جديد» بدأوا فى العقدين السابع والثامن يبحثون عن هذا الدين مرة أخرى فاعتنقوا الاشتراكية الجديدة التى نادى بها « ميخائيلوفسكى » . وكان سر نجاح « ميخائيلوفسكى » هو أنه قدّم للشعب إيماناً جديداً كان مزيجاً من الفكر والعاطفة والرغبة فى العمل . ولقد علّمت مقالاته الناس كيف يعيشون ، وكيف يفكرون ؛ ولكنه لم يكن صاحب نظريات سياسية ، ومن ثم مزج النهيرات الشعبية فى مجرى واحد ، وحاول أن يخلق وعياً اشتراكيًّا نقيًّا مناهضاً

للماركسية المتزمتة الجامدة .

وكان « ميخائيلوفسكى » ينكر الماركسية ويرفض أن يتقبل فكرة المادية التاريخية ، لأنه كان يرى أن العوامل الخلقية والدينية والنفسية والقومية هى التى تفعل فعلها فى حياة البشر . . . فالفرد هو الذى يخلق مقاييس الخير والشر والعدالة والظلم ، وهى كلها آراء خلقية ؛ والفرد هو الذى يحكم على الأشياء ويحدد أهدافه وفقاً لمثله العليا ، التى تعبر عن وعيه الخلقى والدينى والنفسى والقومى . وهكذا ، فإن النشاط الفردى والجماعى وسيلة من القيم التى يصنعها الفرد ، والتى تحدد تفسيرنا للتاريخ ونظرتنا إلى الأحداث التى تقع حولنا . وهكذا فإن قيمة عليا واحدة فى تاريخ التطور البشرى هى التى فرضت نفسها على التاريخ ، هذه القيمة الواحدة هى « الفردية البشرية التى تنموا نمواً متكاملا » والتى هى فى ذاتها أحد الأهداف العليا للبشرية . . .

فالتقدم الاجتماعى هو السبيل إلى الحياة المتكاملة التى تُصان فيها حريةُ الفرد ومصالحه ومطالبه ... حقيقةً أن التقدم الاجتماعى لا يسير دائماً مع السعادة الفردية ، ولكن ذلك التعارض « البسيط » بين التقدم الاجتماعى والفردية خيرٌ من الماركسية التى تقتنص الفرد فى شبكة من التعقيدات السياسية والاقتصادية ، وتنكر عليه حقوقه الإنسانية ، وتجعله مجرد رقيق

أو رقم أو ترس فى آلة كبيرة .

وهكذا كان « ميخائيلوفسكى » يدعو إلى النضال من أجل الفردية ، حتى يتحقق قيام نظام تتوافق فيه مصالح الفرد مع مصالح المجتمع ، وهذا أمر لا يتحقق بشكل اجتماعى سليم إلا فى ظل نظام تعاونى قائم على أساس العمل . وهكذا كانت الاشتراكية التى يدعو إليها هى التعاون بين العمال واتفاق مصالحهم عن طريق العمل .. فالعمل يحرر الأفراد ، وما دامت مصلحة العمل تتفق مع مصالح الأفراد ، فإن الفرد لن يألو جهداً فى العمل والإبداع والتعاون مع غيره من العاملين المنتجين . ولعله من المفيد أن نشير إلى أن التفانى فى العمل وبخاصة العمل اليدوى ، كان من مميزات النبلاء النادمين الذين تحولوا إلى الشعبية بدافع من « التكفير الاجتماعى » عن أخطاء طبقتهم . ويشبه « ميخائيلوفسكى » زميله « ليوتولستوى » فى تمجيده العمل . وقد وضح هذا الاتجاه فى الأدب الروسى وضوحاً كافياً .

وعلى الرغم من أن « ميخائيلوفسكى » كان يمجد العمل ، ويعتقد أن العمل يحرر الفرد ، فإنه كان حريصاً فى الوقت ذاته على إنكار تأليه الشعب أو تأليه الفلاح أو تأليه العامل . كذلك كان يحذر المثقفين الذين يدافعون عن الشعب ، من أن تسيطر عليهم نزعات الشعب التى تشوبها فى بعض الأحيان شوائب

رجعية وتسيطر عليها ميول مرجعها إلى التعصب الأعمى .

وهكذا حاول «ميخائيلوفسكى » أن يصل إلى طريقة توحد بين المعرفة والأخلاق ، أو بمعنى آخر بين العلم المادى والمثل العليا .

ومن ثم قال « إن الإشارة إلى أن حقيقة السماء النظرية بعيدة كل البعد عن حقيقة الأرض العملية ، أمر لا يبعث على الرضا بل ويؤلمنى دائماً . . . كذلك أرى أن الحياة النبيلة والآراء الأخلاقية والاجتماعية العالية تبدو لى عاجزة ، إذا هى لم تحفل بالحقائق العلمية » .

كذلك كان « ميخائيلوفسكى » يؤمن بأن ثورة روسيا المقبلة سوف تكون نتيجة تحالف بين الفلاحين والطبقة العاملة والمثقفين . وهكذا خلع على الاشتراكية طابعاً جديداً ، وحاول أن يسير بها إلى المقدمة مرة أخرى ولكن فى زى جديد .

ولقد صادفت الاشتراكية الجديدة هوىً فى نفوس كثير من الناس ، فساروا وراءها . . . وكانت الماركسية قد اجتذبت بدورها بعض الناس . ومن ثم أصبحت الاشتراكية الجديدة « الشعبية الحديثة » والماركسية ، التيارين الرئيسيين اللذين تقاسما الطبقة المثقفة فى نهاية العقد الثامن وبداية العقد التاسع .

الجزء الثانى

نماذج من الإنتاج الفكرى
لقادة الشعبيين والاشتراكيين

١ ــ اسبنسكى

٢ ــ جارشن

٣ ــ نادسون

٤ ــ سالتيكوف

الفصل الأول

الشعبية الأولى

كان خليقاً بالحركة الشعبية — كفكرة جديدة — أن تسود المناهج السياسية ، وأن تؤثر فى النشاط الأدبى ، وخاصةً بعد أن أصبح « التجاوب مع الشعب » ووحدة الجماهير مع الطبقة المثقفة ، الحلم الذى سيطر على أخيلة المفكرين . ولعل أصدق وصف للاتجاه الشعبى هو ما قاله ألكسندر ارتل : « إن المرء قد لا يؤله الشعبية ، ولكنه فى الوقت ذاته لا يستطيع أن يهرب منها » .

ويصدق هذا القول حتى على « تولستوى » و« ديستويفسكى » اللذين كانا يسيران ضد التيار ، ويعارضان الاشتراكية والحركة الثورية . فقد كان ما أجراه تولستوى على لسان الفلاح «أفلاطون كاراتيف » فى قصته (الحرب والسلم) برداً وسلاماً على قلوب الشعبيين . وكذلك كشف « ليفين » أحد أبطال قصة « أنّا كارنينا » عن الحكمة العالمية فى عقلية الفلاح وطريقة حياته ، كما صُورت نزاهة الفلاح على لسان الأمىّ المتلعثم « أكن » فى

قصة « قوة الظلام » تصويراً واضحاً يمثل الشعور الأخلاقى العالى . . كذلك أبرز « تولستوى » الفارق الضخم بين أخلاق الفلاحين العالية وسطحية الطبقة العليا ونفاقها ، كما سخر من المدنية الرأسمالية . . . أما « ديستويفسكى » فقد أبرز طهارة « الناس البسطاء » وأعرب عن إيمانه الجازم فى خلاص العالم عن طريق روسيا . . . ولا شك أن هذا كله يكشف عن مدى سطوة الحركة الشعبية ونفوذها ، حتى على أشخاص من أمثال تولستوى وديستويفسكى اللذين كانا يعارضانها .

أما الكتّاب الناشئون فى ذلك العصر ، فقد استحوذت عليهم الحركة الشعبية استحواذاً قوياً ، فعمدوا إلى تأليه « الطبقات الشعبية » باعتبارها نمطاً اجتماعياً ذا أخلاق عالية . وسار هذا التأليه جنباً إلى جنب مع الاتجاه اللارأسمالى ، وذهب بعض الكتّاب الشعبيين إلى أبعد من مجرد تمجيد الفلاح ، إذ راحوا يعزون سوء حال الفلاحين ، إما إلى نتائج البيئة الرجعية كالخرافة والجهل والفقر ، وإما إلى أدواء سطحية فى جسم الفلاحين الصحيح ، كالفردية الخشنة ونزوح الفلاحين إلى المدن الكبرى . ولكن كثيراً من الكتّاب الشعبيين الناشئين استطاعوا على مرّ الزمن أن يتحرروا من تأليه الفلاح ، فصارت صورهم عن الفلاحين مصطبغة باللون الواقعى .

واستحوذت « الشعبية » فى الأدب على عقول كثير من الكتاب منهم الكاتب الأخلاقى العاطفى « نيقولا زلاتوفاتسكى » (١٨٤٥ — ١٩١١) الذى يُعتبر كتابه (الأسس) من أحسن إنتاجه الأدبى ، إذ صوّر فيه الصراع بين مجتمع القرية والفلاحة الحديثة ؛ ومنهم الكاتب الساخر « ألكسندر لڤيتوف » (١٨٣٧ — ١٨٧٧) مؤلف كتاب « صور من الاستبس » الذى يُعتبر إنتاجه الأدبى مَعْلَماً من معالم الطريق التى سار عليها « تشيكوف » و « جوركى » ؛ ومنهم الكاتب اللاذع « فاسيلى سلبتزوف » (١٨٣٦ — ١٨٧٨) المدافع الدؤوب عن تحرير المرأة والمسجل الفكاهى للهجات الفلاحين ؛ ومنهم « نيقولا كارونين » — وهو الاسم المستعار للكاتب « بيترو بافلوفسكى » (١٨٥٧ — ١٨٩٢) الذى اشترك فى نشاط حزب « الأرض والحرية » ، والذى اشتهر بأنه مؤرخ الحياة الريفية ؛ ومنهم « نيقولا نونوف » (١٨٣٨ — ١٩٠١) الذى كرّس إنتاجه الأدبى ، وخاصةً قصصه القصيرة « المملكة المنسية » للدفاع عن فلاحى سيبريا ؛ ومنهم « بول زاسودمسكى » (١٨٤٣ — ١٩١٢) الذى كتب قصصا دامعة عن الفقراء فى المدينة والقرية ؛ ومنهم « كازيمير بارانزيفتش » (١٨٥٢ — ١٩٢٧) ؛ ومنهم الكاتب الموهوب « ميخائيل أليوف » (١٨٥١ — ١٩١١)

الذى سار على نهج « زاسود مسكى » ؛ ومنهم « ألكسندر أرتل » (١٨٥٥ ــ ١٩٠٨) الناقد الشعبى المتأثر بأدب « تولستوى » ، الذى رسم عدة صور معبّرة ناطقة عن الحياة الريفية ، والذى أتاح له امتلاكه لناصية اللغة ، فرصة السيطرة والتفوق على صغار الكتّاب الناشئين فى ذلك العصر .

ولقد وجّه قادة جماعة الشعبيين الذين ظلوا أوفياء لتقاليد العقد السادس ، اهتمامهم إلى المجتمع المثقف ، فرسموا صورةً صادقة لجيلهم الحائر . فبينما وصف بعضهم مثل « أندريه أوسيبوفتش نوفود فورسكى » (١٨٥٣ ــ ١٨٨٢) فشلَ الحركة الشعبية ، ركّز آخرون أعمالهم حول الأحداث اللافحة فى ذلك العصر كتحرير المرأة ، والنضال ضد التحزب الاجتماعى ، والصراع بين صغار الراديكاليين وبيئتهم المحافظة فى المجتمع والأسرة . وكان من المفضلين لدى الطبقة المثقفة « ألكسندر شلر ميخايلوف » (١٨٣٨ ــ ١٩٠٠) مؤلف القصة الشعبية الرائعة « عندما تُقطع الغابة تتناثر الشظايا » ، و « جورج ماشيت » (١٨٥٢ ــ ١٩٠١) الرجل المثالى ، وكاتب القصص القصيرة المثيرة « قسطنطين ستاينوكوفتش » (١٨٤٣ ــ ١٩٠٣) مؤلف « قصص البحار » وهى مجموعة من القصص الذائعة الصيت عن البحرية الروسية ، و « أنولنتى فيدروف أميولفسكى »

(١٨٣٦ — ١٨٨٣) الشاعر والروائى السيبيرى الذى نال كتابه « خطوة بعد أخرى » إعجاب الاشتراكيين .

ووجد الأدب الشعبي بغيته فى كتّاب تجاوبوا معه مثل « سيرجى تربيجوريف أتافا » (١٨٤١ — ١٨٩٥) الذى صوّر كتابه الواقعي الصلب « الأعواز » انحلال طبقة الملاك ؛ و « بولسلاف ماركفتش » (١٨٣٢ — ١٨٨٤) الذى كتب عدة روايات عنيفة ؛ « وفاسيلى أفسينكو » (١٨٤٢ — ١٩١٣) ، و « قسطنطين جلوفين أردوفسكى » (١٨٤٣ — ١٩١٣) .

وعندما أشرف العقد الثامن على الانتهاء ، كان الأدب المحافظ غير الشعبي سائراً فى طريق الانحلال . . . أما « دستويفسكى » ، وهو الكاتب الوحيد فى ذلك العصر الذى كان يعارض الراديكالية ، فيمكن أن يوصف بأنه كان من عدة وجوه كاتباً شعبيًّا دينيًّا .

الفصل الثانى

١ – اسبنسكى

عندما نمت النزعة « الشعبية » ، تحولت من تأليه الشعب إلى دراسة حياته وعقليته دراسةً عميقةً واعيةً ، وهذا هو الدرب الذى سار عليه « جليب اسبنسكى » (١٨٤٣ – ١٩٠٢) ، أهم كتّاب الحركة الشعبية ، الذى كان يمثّل الكفاح الراديكالى المتحرر فى العقدين السابع والثامن .

وكانت حياة « اسبنسكى » تؤهله لهذا الدور . . . فطفولته التعيسة نمتّ فيه حساسية دافقة . فقد كان إبناً لموظف حكومى صغير . وبعد التحاقه بجامعة « سانت بطرسبرج » ، أخذ يتردد على مجلة « الزميلة » الشهرية ، وظل يتردد عليها حتى نشرت له سلسلة من الصور الأدبية تحت عنوان « الحياة فى شارع راستربيفا » ، كتبت بطريقة سيكولوجية على غرار المذهب الطبيعى فى الأدب . وكان موضوعها الصناع وصغار الموظفين والفقراء والمعدمين والمحرومين من الإرث .

وككل الكتّاب الشعبيين ، ركّز « اسبنسكى » اهتمامه

على « المستضعفين والمستنذلين » بفقرهم وقسوتهم وميلهم إلى الإغراق فى احتساء الخمر . وكان « شارع راستريفا » يمثّل جميع مظاهر البله والفظاظة والقسوة. ومن ثم كان الكتاب تصويراً صادقاً ارجال ونساء ديسوا بالأقدام وأنهكهم العمل الشاق والقلق والنضال من أجل لقمة العيش ، حتى دفع بهم أخيراً إلى التماس العزاء والنسيان فى احتساء الخمر . . . فهم يرهنون ملابسهم الرثة ولا يتورعون عن الاختلاس والسرقة والاغتصاب من أجل كوب من شراب « الفودكا » ، ويقعون فى براثن « بورفيرتش » الذى يقرضهم النقود ليزيدهم بؤساً على بؤس فيجعل حياتهم جحيما وظلاما .

وقد نمتّ ميول «اسبنسكى» الراديكالية والشعبية اتصالاتُه باللاجئين الاشتراكيين الذين قابلهم خلال رحلة إلى أوروبا عام ١٨٧٢ ، والعرى الوثيقة التى ارتبط بها مع أعضاء حزب « الأرض والحرية» وحزب إرادة الشعب ؛ وكان « لميخائيلوفسكى» فيما بعد تأثير قوى عليه .

وقد قال عنه « ميخائيلوفسكى » : إن حساسيته وأعصابه الضعيفة جعلته سريع التأثر بوخزات الضمير ، فقد كان يعذبه « ضميره الاجتماعى » ، لأنه رأى فى الظلم والفاقة وسوء الإدارة إهانات شخصية له . كذلك كان دائم الترحال فعاش فى القرى

والبلاد الصغيرة وجمع مادة لكتاباته الأدبية من كل مكان . وترجع مكانته فى نفوس الشعب إلى الصور الأدبية التى كشف فيها عن الحياة الريفية » .

وكشعبى ، كان « اسبنسكى » يميل إلى الإشادة بقوة الفلاح الخلقية ، مع أنه ككاتبٍ واقعى ومراقب حاذق ، كان يعطى دائماً صورة صادقة لحياة القرية التى كان فى واقع الأمر يُعنى عنايةً خاصةً بناحيتها المكلومة ، كالمعيشة البائسة لفقراء الفلاحين الذين أثقلت كواهلهم الضرائب وغلت أيديهم سلطةُ رجال الإدارة الحمقى الغلاظ القلوب ، ومآسى الديون والقضايا والأوبئة والمجاعات والجدب ، وجهل الفلاحين أنفسهم وتعصبهم ، وما يقوم به « المزارعون المتوسطون » الذين أخذوا فى النمو حتى صاروا عشيرة من صغار المستبدين ، فأدخلوا الرأسمالية فى القرى . ولعله كان يكتب هذا ليكتسب مديح لينين !

وقد أثقل على الواقعية إلى الحد الذى يعدل وجهة نظر المثقفين نحو الفلاحين . ولكنه فى الوقت نفسه كان يحذّر المثاليين مما قد يجدونه فى الريف ، إذ كان يعتقد أن الفلاح ، ولو أنه من نمط أعلى بين الأفراد ، ما زال باقياً على مستوى منخفض من النمو . وكان هذا التمييز يغرب عن بال الشعبيين كثيراً .

كذلك كان « اسبنسكى » كاتباً فكاهياً يميز بين « المضمون الاجتماعى » لكل طبقة من الطبقات . كما كان كاتباً تصويريا يكتب القصة الخيالية والمقال الاجتماعى بكفاءة عالية . ولكن كتاباته ، كانت مع ذلك — فيما عدا استثناءات نادرة — تشبه كتابا ضخما سجل فيه فنان موهوب ملاحظاته وأفكاره بطريقة غير رتيبة . فكان كل شى ناقصاً . ولم تكن الصورة قط عملا فنيا كاملا .

وكان الشىء الذى يضفى حياة على الصور التى رسمها ، هو القوة التى كان يستجيب بها لآلام الناس .

وإذ كان « اسبنسكى » حساساً بصفة خاصة للتأثيرات الخلقية للأوتوقراطية والفاقة ، فقد رأى أن المجتمع الروسى مكون من فريقين كبيرين هما : فريق الإرهابيين وفريق الخائفين — ذلك أن الخوف كان يسحق الطبقات الدنيا ، فالشعب لم يكن يسمع غير هذين الإنذارين « أغلق فمك » ، و « طأطئ رأسك » . ومن ثم تعلم أثناء تجواله أن الناس العاديين حطمتهم العبودية وانعدام الأمن . فهاجم بعنف تمزيق النفس البشرية على هذه الصورة . وكانت أصدق صوره تعبيراً ، تلك التى تحمل عنوان « وضعتنى مستويا » (١٨٨٥) وموضوعها مدرس ريفى يدعى « تيابوشكن » ، نهش الجوع أحشاءه فرقد على مقعد خشبى فى كوخ قذر ،

وقد اتخذ من سترة ممزقة من جلد العنز غطاءً له . ولكنه رغم ذلك لا يسلم من الأذى . . فالبوليس يُنزل به شتى أنواع الردى ، و « المثقفون » ينظرون إليه شذراً ، وأعداؤه وموظفو الحكومة يهددونه بالويل . ولكن ليس من المهم ما قد يشعر به «تيابوشكن» من ألم وحزن ، لأنه يجد العزاء فى الذكريات : لقد ذهب مرة إلى فرنسا وشاهد « فينوس » فى الردهة المربعة فى اللوفر ! وبعث هذا التمثال فى نفسه الغبطة والإيمان . وفى استطاعته الآن أن يتحمل الخوف والبؤس ، لأن الآلهة قد وضعت نفسه مستقيمة مستوية ، وجعلته يتحقق من «سعادة كونه كائناً بشرياً» ، وإمكانه أن يكون جميلا ، فهو يملك جميع إمكانيات التحسن البشرى والوصول إلى مستقبل مجيد ! . . قد تستطيع الحياة القاسية والرجال غلاظ القلوب أن يُنزلوا به ألواناً من الظلم والإساءة ، ولكن طالما « فينوس » تقف شامخة ، فإن المثل الأعلى للتوافق والحرية ما زال يحيا فى عقول الرجال ؛ ولن ينهار « تيابوشكن » أمام الحقيقة الكريهة مهما تعفنت وزكمت رائحتها الأنوف .

وهكذا كان « اسبنسكى » يؤمن أن المستقبل سوف « يضع كل شىء مستويا » ومن ثم لم يحرص على أن يحصّن نفسه ضد المنازعات والبشاعات التى كانت تسود عصره . فعدم استقراره ،

والحماس الذى كان يعمل به ضد شرور المجتمع ، كان لهما نتيجة سيئة . ففى عام ١٨٩٩ ، ظهرت على « اسبنسكى » علامات الجنون ، وبعد ثلاث سنوات وُضع فى مستشفى للأمراض العقلية حيث بقى حتى مات عام ١٩٠٢ .

وهكذا يمكن القول إن حلم « اسبنسكى » بالمستقبل اللامع للشعب الروسى » واعتقاده فى « جمال الكائن البشرى الذى لا حد له » ، وبحثه المتحمس عن التوافق والعدالة ، كل ذلك عزّز مكانته فى قلوب مئات الآلاف من القراء الروس .

٢ – « جارشن »

ويشبه « اسبنسكى » تمام الشبه فى حساسيته ، كاتبٌ شعبىٌّ آخر فى ذلك العصر هو « فسيفولود جارشن » (١٨٥٥ – ١٨٨٨) . ولكن بينما كان « اسبنسكى » انعكاسا للحركة الشعبية فى العقد السادس ، كان « جارشن » يعكس حالة ومزاج العقد الثامن بعد هزيمة حزب « إرادة الشعب » . وكان ثمة خلافان آخران : كان « جارشن » من المثقفين ولم يقم بأية محاولة تعينه على أن يخطو خارج دائرته الاجتماعية « ويندمج مع الشعب » . وذهب به مزاجه الشاعرى بعيداً عن طبيعة « اسبنسكى » التى كانت تنمو نحو الصور الرمزية والتحاليل النفسية . وعلى الرغم من أن معظم الشعبيين وصفوا الحياة وصفاً حقيقيًّا ، وحاولوا أن يعطوا صورة صادقة لواقعية المجتمع ، فإن « جارشن » كان يحلل العقد النفسية لدى المثقفين ، والشكوك والرهبة التى كانت تثقل عليهم . فكلا الرجلين كان يعانى من نفس الشعور بالذنب ، ومن الحساسية الشديدة التى وصفها « تشيكوف » بالنسبة لجارشن بأنها « حالة ضمير ملتهب » .

وكان « جارشن » إبناً لأحد الملاك الصغار فى أوكرانيا

وضابطا بالجيش ، فتعلم فى جامعة سانت بطرسبرج . ومع أنه كان فى قرارة نفسه ضد الحرب ، إلا أنه تطوع فى الجيش كنفر عادى لكى يشترك فى حرب عام ١٨٧٧ — ١٨٧٨ ضد الأتراك ، لأنه أراد أن يقاسم الشعب أخطاره وبلواه . وكانت هذه الحركة خليقةً بالمزاج الشعبى ، فالشبان والشابات كانوا يعملون تبعاً لقول القائل « إذا كان الشعب يعانى ، فيجب أن أعانى أنا أيضاً » . ومع أن « جارشن » لم يترك سوى قدر ضئيل من الإنتاج ، فإن سمعته الأدبية سرعان ما استقرت أثناء حياته ، الأمر الذى منحه قليلا من الرضا ، لأن نوبات اليأس واختلال العقل التى كانت تنتابه بين الفينة والفينة أبعدته عن العمل المنظم . وفى عام ١٨٨٨ انتابته نوبة من الكآبة فألقى بنفسه من فوق سلم بئر ولقى حتفه على الفور .

وقد تكون أول وأعظم قصة قصيرة له هى « الأيام الأربعة » (١٨٧٧) . وهى تقص طرفاً من تاريخ حياته ، كتبها بعد أن جُرح فى إحدى المعارك . فبطل قصته ، قد تمزقت إحدى ساقيه من رصاصة تركية ، ورقد لمدة أربعة أيام فى حومة الوغى بجوار جثمان متصلب لأحد الأتراك أردته رصاصة روسية . وكان الوصف والتفصيلات مما يقض مضجع النائم . « فالأيام الأربعة » ، كانت قصة الفزع المثير الذى تنشره الحروب .

ولقد اختص « جارشن » كتابته بمشكلة الشرور . فى إحدى قصصه « الزهرة الحمراء » (١٨٨٣) اعتقد أحد نزلاء مستشفى المجاذيب أن جميع الشرور فى العالم تتركز فى ثلاث زهرات حمر نامية فى الفناء الخلفى للمستشفى ، فقطفها وأخفاها فى قميصه بالقرب من قلبه ، فشعر أن السم البطىء الكامن فى هذه الزهرات اللعينة يقتله ببطء ، ولكنه مع هذا كان على استعداد للقيام بالتضحية الكبرى لكى ينقذ البشرية ، بالقضاء على حياته . وهو على هذا يموت معتقداً أنه استأصل الشر إلى الأبد . . . وتكاد هذه القصة تكشف عن مزاج « جارشن » . . فقد كانت الشرور والمساوئ تنهش قلبه ، ومات كبطل قصته ، بعد أن وجد أن وقر الشر لا يُحتمل .

وتدور كل قصص « جارشن » حول الآلام وسفك الدماء والفزع . فى إحدى قصصه « الفنانون » (١٨٧٠) يريد النقّاش « ريابينين » أن يطلى أحد عمال مصنع الصلب الذى ينحصر عمله فى أن يستعمل ثقل جسمه فى تثبيت المسامير داخل الغلاية ! وكان « جارشن » — كبطل قصته ريابينين — تشغل باله فكرة ضحايا القسوة والشره الإنسانى ، فأراد أن يثير شعوراً من الشفقة والفزع فى نفس القارئ . ولم يخفف وخزات الضمير عنده أى

أمل فى إصلاح قريب . . .

لقد كان « جارشن » يصبو إلى الحب والانسجام ، ولكنه كزميله « اسبنسكى » ، كان يعلم أن أحلامه لن تتحقق أثناء حياته . .

وفى إحدى قصصه الرمزية « أتيلا برنسيبس » (١٨٨٤) يسبّب الزجاج فى إحدى بيوت تربية النباتات عجزاً والتواء فى إحدى النخيلات المجلوبة من الخارج ، ولكن الشجيرة تتملكها الكبرياء فتحطم الزجاج وتطل برأسها مزهوة فوق سطح المنزل .. ولكنها لا تجد سوى سماء من رصاص وبرد قارص ومزيد من العواصف الثائرة . .

وهكذا حاول « جارشن » فى هذه القصة ، كما حاول فى قصصه الأخرى أن يكشف عن مأساة نفسه . ولقد لاحظ معاصروه أنه كان يحاول أن يبيّن عدم جدوى الألم كذلك ، ولم يتحققوا من أن هذا الفنان المسلوب اللب يختلف عن زملائه الكتّاب الأخرين . لقد كان يسمّى نفسه واقعيا ، ولكن كتاباته كانت تنأى به عن المدرسة الواقعية . فقد اجتذبته تفصيلات الألم الجسمانى والعذاب الأدبى كما اجتذبت « دستويفسكى » ، فالعقدة الروائية والروح الرومانتيكية فى إحدى قصصه الطويلة « نادزهدا نيكولايفنا » (١٨٨٥) وهى قصة بغى اغتالها عشيقها

الشيطانى وقتل منافسه ثم أردى نفسه ، تُظهر العلاقة بين « جارشن » من ناحية و « دستويفسكى » مؤلف قصة « الجريمة والعقاب » من ناحية أخرى ، وإن كانت تكشف من جهة أخرى عن نثره المنغم وأسلوبه المجازى الرمزى ، وشعوره بكل ما هو قوى . ولعل « جارشن » هو الكاتب السيئ الحظ الذى مهد السبيل للعمالقة من أمثال « تشيكوف » وكتاب عصر الانحلال فيما بعد .

٣ ــ نادسون

كان يجارى « جارشن » فى الشعر ــ ولو على مستوى فنى أكثر انخفاضاً ــ «سيمون نادسون» (١٨٦٢ ــ ١٨٨٧) الشاعر الغنائى الحبيب لجيلٍ من أصحاب المثل التى أصابها الإحباط . فأبوه مات مجنوناً ، وكانت أمه ارستقراطيةً عليلة . . وبعد طفولة حزينة وحيدة ، درس فى المدرسة الحربية فى سانت بطرسبرج ، ثم خدم فى الجيش كضابط ، ولكن صحته العليلة أرغمته على الاستقالة إذ كان يعانى من مرض السل . وزاد حالته سوءاً موتُ شابة كان يحبها حباً أقرب إلى العبادة ، فقضى بقية حياته نصف عليل فى المصحات والمستشفيات فى روسيا والخارج .

وعندما كان « نادسون » فى السادسة عشرة ، كان حزب « إرادة الشعب » فى الطليعة ، فسار على نهج « نكراسوف » ، وكتب عن « المعركة ضد الظلم » وعن آلام الشعب . وصار فيما بعد خطيب الجيل الذى كان يدوى صوته فى جو من الهزيمة ورد الفعل الخانق ، ولكنه استعاد ذكريات أعمال البطولة والتضحيات فى الأجيال التى سبقته .

وكان « نادسون » بحساسيته المرهفة وعلامات الموت الوشيك ، قادراً عن على التعبير عن مزاج معاصريه الذين كانوا يشعرون أنهم ينحلون ببطء فى عصر من الغش والخديعة . وكان الرضا يغشاهم عندما يستمعون إلى مقطوعات « نادسون » ، وكانت أشعاره — التى زاد من قيمتها قصة حياته البائسة — حبيبةً إلى نفوس الشعب ، فأعيد طبع أشعاره أربع عشرة مرة فى اثنتى عشرة سنة . ولقد خاطب الشباب بلغة العموميات البسيطة ولو أنها كانت مليئة بالإيثار الكريم . ومع أنه كان يحشو قصائده بالكلمات الرنانة وعلامات التعجب ، إلا أن شعره كان مؤثراً . ويبدوا أن قرّاءه كانوا لا يلقون بالاً إلى تفاهة تعبيراته وتشبيهاته . ذلك أن مثل هذه الخصائص كانت فى العقد الثامن تلقى قبولا فى شعب ذلك الجيل ، وسرعان ما كانت ترتفع أصواتهم بنشيدها . أما الآن بعد أن خفتت الأصوات وكمت الأفواه ، وتغيرت الحال ، فإن الشعب الروسى لا يستجيب للفظ المؤثر الذى كان يردده هذا الشاعر ، شاعر العاطفة والتنهدات . ولكن قصائده لا تزال تحظى بإعجاب الأوربيين . ولعل الاستمتاع بشعر « نادسون » لبضع أحقاب ، ظاهرة ذات مغزى اجتماعى أكثر منه أدبى .

ومما هو جدير بالملاحظة أن الكتّاب الثلاثة الذين لمعوا فى

ذلك العصر : « اسبنسكى » و « جارشن » و « نادسون » ، كان مصيرهم محزنا : الجنون والمرض والموت المبكر ، وكأنهم أرادوا أن يرمزوا لمواطنيهم ومعـــاصريهم عن المصير المحزن لجيل بأكمله !

٤ — سالتيكوف

لم يُعنَ أعاظم الكتّاب فى ذلك العصر ، وهم « تولستوى » و « دستويفسكى » و « وترجينيف » و « ليسكوف » و « فت » بأن يجعلوا من أنفسهم رمزاً للطبقة المثقفة الاشتراكية . غير أن أديبين بارزين هما : نيكراسوف (فى الشعر) و « سالتيكوف » (فى النثر) صارا رمزاً للاشتراكيين ، واعترِفَ بهما من قادة الجناح الأَيسر .

وكان مركز « سالتيكوف » فريداً . . فقد كان ينتمى إلى جيل من « المدرسة الطبيعية » ، وكانت وسائله وروحه هى وسائل الواقعية الانتقادية التى كانت تسود الجو الأدبى فى أيام شبابه . وعلى الرغم من أنه صهر نفسه فى بوتقة تقاليد ذلك الجيل ، فإنه فى نفس الوقت ، ابتكر نوعاً جديداً من التهكم الاجتماعى والسخرية السياسية .

ويُقارن مركز « سالتيكوف » فى الأدب الروسى بمركز « سويفت » فى الأدب الإنجليزى . ومع أنه نهج على منوال مَنْ سبقوه فى الهجاء وخاصةً « جريبويدوف » ، و « جوجول » (وكان تأثير الأخير عليه بارزاً ، وخاصةً فى تكوين الجملة

فى مؤلفاته الأولى) فقد كان أكثر غضباً ، وكان يسير على نهج مرسوم أكثر مما فعل أسلافه ، مما دفع « تشيكوف » إلى أن يقول عنه : « إن سالتيكوف وحده هو الذى يعرف كيف يعبر عن احتقاره بصراحة . ومع أن ثلثى قرائه يكرهونه ، فإنهم كانوا جميعاً يصدقونه و يثقون فيه » . وتبين عبارة «تشيكوف» هذه ثلاث ميزات بارزة فى سالتيكوف هى : دقة وصفه الواقعى ، وإخلاصه للحقائق ، والغضب الذى يلوّن هجاءه .

ولقد وُلد «ميخائيل سالتيكوف » (١٨٢٦ — ١٨٨٩) — الذى كان يكتب تحت اسم مستعار هو (ق . شيدرين) والذى كثيراً ما يشار إليه بالاسم المزدوج ستاليكوف شدرين — وُلد فى عائلة عريقة فى النبل تملك إقطاعيات لا حصر لها . ومن ثم استطاع أن يرى — وهو طفل — الاستبداد الإقطاعى وسوء معاملة مُلاّك الأرض للفلاحين . وكان اتصاله ببتراشفسكى واهتمامه بالاشتراكيين الفرنسيين بعد تخرجه ، سبباً فى تكوين آرائه السياسية .

ولقد أثارت قصتاه « العمل المتشابك » و « معارضات » (١٨٤٨) اللتان تساءل فيهما : لماذا يركب بعض الناس العربات ، ويتردى غيرهم فى الحمأة ؟ — أثارت هاتان القصتان حفيظة رجال الإدارة والحكومة عليه ، فنُفى المؤلف الشاب إلى

« فياتكا » فى أقصى الشمال حيث أرغم على أن يحيا إلى عام ١٨٥٦ . ثم بسبب بعض ألوان التناقض التى كانت سائدة بين السلطات الإدارية ، سُمح له بأن يستأنف نشاطه الحر بعد ذلك !

ووصف « سالتيكوف » فيما بعد إقليم « فياتكا » الذى كان منفياً فيه بأنه — « عالم من الأبخرة المنتنة ، والمستنقعات ، والقال والقيل ، ولعب الورق ، واستحكامات رجال الحكومة ».. وسجل هذه الانطباعات فى كتابه « صور إقليمية » (١٨٥٦ — ١٨٥٧) الذى يُعتبر عرضاً لاذعاً لمفاسد الإدارة وحمق رجالها ، وقسوة البيروقراطية ، ومفاسد العهد التى لم يصفها بنفس القوة ، سوى « جوجول » . . . ومن ثم رحّب به التقدميون ، وبخاصة « سزبنشفيسكى » و « دوبروليوبوف » .

ومع ذلك ، فإن انتشار كتب الكاتب « ن . شدرين » لم تؤثر كثيراً على حياة الموظف « ميخائيل سالتيكوف » ! ! فقد ارتقى فى الحكومة البيروقراطية وعُيِّن وكيلا لمحافظ « رازان وتفير » ، ثم وصل إلى مرتبة مستشار دولة عام ١٨٦٢ ، ثم استقال ليكرس نفسه للكتابة . وبعد القبض على « سزبنشفيسكى » صار أحد محررى مجلة « الزميل » واشترك فى عام ١٨٦٨ مع « نكراسوف » فى إدارة مجلة « مذكرات الوطن » التى لعبت

دوراً هاما ، بأن جمعت حولها قلوب الأحرار والراديكاليين . .
وفى عام ١٨٨٤ صودرت هذه المجلة بأمر الحكومة القيصرية
بعد أن قضى « سالتيكوف » ستة عشر عاما فى العمل من أجلها .
وهكذا حُرم « سالتيكوف » — الذى كانت تحتاج عبقريته
الثائرة إلى منفذ — من أقوى أسلحته فى النضال ضد النفاق
والجهل والظلم والخيانة . . . وأخيرا قضى الخمس سنوات التى
بقيت له من حياته ، يكتب تهكمه اللاذع وقصصه التى تروى
ترجمة حياته . .

ويمكن تقسيم كتابات « سالتيكوف » إلى ثلاث مجموعات
رئيسية : الأولى تشمل أروع كتاباته (عائلة جولوفريف)
التى أمضى ثمانى سنوات فى كتابتها ، ثم نشرها عام ١٨٨١ .
وهى تروى تاريخ حياة عائلة نبيلة شهدت انحلالها التدريجى
فوق أرضها . ولئن كان « جونشاروف » و « اكساكوف »
و « تارجينيف » قد وصفوا كذلك انحلال طبقة النبلاء بطريق
يستثير الحنو والشفقة ، فإن وصف « سالتيكوف » كان مليئاً
بالاحتقار والاشمئزاز والازدراء ... ذلك أنه كان عدواً عنيداً
للنظام الذى يؤيد طبقة النبلاء ، ومن ثم رأى فى الإقطاع الذى
يُمثِّله هذا النظام منبعاً لكل شر « للموت والسموم والآلام
الضارية » .

ولقد، وصف سقوط عائلة « جولوفليف » بتفصيل يثير السخط . فصارت القصة رمزاً لانحلال طبقة سائرة فى طريق الجنون والانحطاط . فمثلا كانت « أرينا بتروفنا » رأس العائلة الخادعة تتحكم فى زوجها وأولادها وعبيدها بيد من حديد وهى تمقتهم جميعا . . . ولانهماكها فى تكديس الثروة والمال ، ضحت بنفسها وسامت أولادها خسف العذاب ، وحطمت حياة زوجها — وهى تعتقد أن هذا كله كان « لصالح العائلة »! . فإذا ما أشبعت غرائز السلب والنهب فيها ، وكدست الثروة بامتلاك الأراضى والقرى والعبيد ، وضح لعينيها أن ثمرة عملها كانت هباء ، ووجدت نفسها تعيش فى فراغ ، إذ أتى ابنها « بورفيرى » فى النهاية ، وبسلسلة من الاختلاسات المحكمة الترتيب والخطط ، ليسلب منها الأرض والعبيد والمال ، فماتت الحاكمة العجوز ميتة الحزن والوحشة والألم .

وكان تصوير الابن الفاسد « بورفيرى جولوفليف » قوياً مؤثراً لدرجة أصبح معها رمزاً متجسداً للعبث ، فصار اسمه المستعار « يودوشكا » (أو يهوذا الصغير) رمزاً متداولا . . . وهو يقف فى صف واحد مع « بكسينيف » و « ويوريا هيد » المنافقين الآخرين فى الأدب العالمى ! فهذا « المتلوف » الروسى كان محبباً لأمه مع أنه كان فى الواقع وحشاً ضارياً ، ومصاص

دماء ! وكان رغم انحلاله الخلقى ناعم الملمس ، فسار فى سبيله الإجرامى بلا ضمير . . . وكان رغم ذلك دائم الابتهال إلى الله ، فهو يصلى بحرارة ويرسم على صدره علامة الصليب قبل أن يُقدم على أى عمل من أعماله الإجرامية البشعة ! !

ولكنه بعد نجاحه فى تجريد أمه وأقاربه من العقار والمال ، وبعد أن أصبح السيد الوحيد والمالك الوحيد للثروة الكبيرة ، لم يبقَ أمامه سوى عمل يسير هو ملء الفراغ الذى خلّفته البطالة ، فأرخى « بورفيرى » العنان لخياله الشرير ، ولجأ إلى شتى ضروب الفساد والنفاق تحت ستار من الأخلاق وخشية الله ! . فكان يقضى وقته فى خلق مضايقات سخيفة ودعاوى لا معنى لها ، لأن ذلك المسلك كان يحقق له وهماً لذيذاً بأنه يمارس نشاطاً ! . كما كانت صلواته وترديد مقتبسات من الإنجيل أو بعض الأقوال التافهة تخلع عليه مظهراً من التدين والاحترام ! كذلك كان هذا المنافق الذليل كاذباً ثرثاراً . فلسانه لا يكف عن الكلام ، لأنه كان يخفى انحطاطه الأخلاقى وكل أفعاله الشريرة خلف ستار من الثرثرة ! . وأخيراً جاءت نهايته حزينة كنهاية ضحاياه ــ فقد هجره الجميع وعاش فى عزلته تحوطه أكوام من القذراة والعرق المشبع بالتراب ، ولم تفده ثرثرته ولا تظاهره بالتقوى فى دفع الانحلال الجسمانى عن نفسه ! .

وهكذا كان هذا التاريخ العائلى الكريه الذى سجلته قصة « سالتيكوف » لايسجل سوى الإحباط والفشل والموت ، فحتى وصف الطبيعة كان يرتبط بجو القصة القاتم — جو الكآبة والانحلال : فوجه الأرض قد أظلمته السحب وأحالته الأمطار إلى مستنقعات ! والصقيع يقتل فى الأرض نبضات الحياة ! . ووهج الصيف المدمر وما يصحبه من « ظلام الحرارة » يجعل الحياة جحيما لا يطاق . ولقد أوعزت صفة التوتر فى هذه الرواية إلى « دستويفسكى » أن يخلق نمطاً مماثلا من المنافقين الطفيليين فى شخصية « توماس أوبسكين » بطل قصته « قرية سبتانشيكوفو » ولكن « أوبسكين » كان مع ذلك شفيقاً وادعا ، إذا قيس بيودشكا بطل قصة « سالتيكوف » .

وإذ كان النظام الأوتوقراطى يحاول الدفاع عن شيئين أساسيين هما مجد الأسرة والملكية الخاصة ، فإن قصة « عائلة جولوفليف » قد سجلت انحلال طبقة النبلاء خلقاً وجسداً . وقد تم هذا خلال طائفة من التحاليل النفسية للشخصيات الرئيسية ، وهى طريقة ميّزت قصة « سالتيكوف » عن سجل العائلة الذى كان يكتبه واقعيون آخرون . فاستعمال « سالتيكوف » للتفصيلات الواقعية كان عملا ذا مستوى مرتفع . . فقد اختار المؤلف أبطاله قصداً . . . وكانوا كلهم يخدمون غرضاً محدداً

متناسباً مع خطة محكمة التنظيم . .

ولقد أشاد « تارجينيف » — وهو الذى قارن « سالتيكوف » « بجوفينال » و « سويفت » بأسلوبه الرصين ومرحه المدمر ، وواقعيته الصافية الرزينة التى احتفظت بسحرها وقوتها وسط خياله النشيط . .

وتتوافر هذه الصفات — ولكن بإدراك نفسانى أقل — فى كتابه الأخير « الأزمنة القديمة فى بوشيخونى » (١٨٨٧) وهو شبه تاريخ شخصى لروسيا قبل عهد الإصلاح . ولكنه تعوزه القوة والتماسك اللتين ظهرتا بوضوح فى قصة « عائلة جولوفليف » ولكنه مع ذلك يحوى وصفاً رائعاً للعادات والحياة فى عزبة ريفية نمطية ، وصوراً عن النبلاء والفلاحين ، كما تمتاز بعض فصوله بقوة روائية عالية .

وتشمل المجموعة الثانية من أعمال « سالتيكوف » هجاءه وتهكمه . وهى صور مرسومة فى الأغلب الأعم مثل الكاريكاتير بخطوط عريضة جريئة ، وغالباً ما ينقلب التهكم إلى خشونة وكراهية . وتحفل كتابات « سالتيكوف » المليئة بالاحتقار بمرارة وازدراء للغباء والحمق . فشياطين العسف والشر وضيق الأفق والرجعية لم تسلم جميعاً من طعناته المرحة المتهكمة . ومن بين أعماله التى من هذا النوع « قصة مدينة » (١٨٧٠) . وربما

كانت هذه القصة أكثرها خصائصاً وأكثرها قبولا لدى الشعب.. فقد عمد — شأنه في ذلك شأن «جوجول» — إلى مهاجمة الحاضر عن طريق الماضي ، إذ مثّل « سالتيكوف » تاريخ روسيا بتاريخ مدينة خيالية تدعى « جلابوف » (أو مدينة الحمقى) يقبل أهلوها حكامهم بنوع من قدرية الشرق ! !

وكان شعب «جلابوف» — كجميع شخصيات «سالتيكوف» — يعتريهم الخوف طوال الوقت . فقد كان مقدّراً عليهم أن يرتعشوا أبداً ، كما كان مقدّراً على حكامهم أن يبعثوا فيهم الخوف أبداً يضربهم بالسياط وسوء معاملتهم ! . وكان أهل المدينة متواكلين خاضعين خانعين . كما كان حكامهم ذوى جنة وجهالة . فأحد حكام « جلابوف » يحمل بدلا من رأسه آنية فارغة ! ، ولكن يبدو أن أحدا من الشعب لم يعبأ بذلك ، طالما أن هذا النظام مشابهٌ تماماً لكل نظام آخر . « فالمواطنون يُقبض عليهم ويُسجنون ويُضربون وتُلهب ظهورهم بالسياط ثم يُباعون في سوق الرقيق ! ! »

ولم يجد القراء صعوبةً في أن يتعرفوا وسط هذا الوصف ، على ملامح القيصر ومحاسيبه . فالحاكم « نيجودابيف » (الذى لا يصلح لشيء) نسف الشوارع التي رصفها أسلافه لكى يحصل على مادة لبناء التماثيل ، فكان بذلك صورة مصغرة

للقيصر « بول الأول » . بينما كان « جراستيلوف » (الشاكى) الشهوانى الغامض الذى يضرب شعبه بجنون ، صورةً هزليةً للقيصر ألكسندر الأكبر . كذلك رسم « سالتيكوف » صورةً كاريكاتوريةً للجنرال « أراكشييف » أحد محاسيب القيصر « ألكسندر » تحت اسم « أجريوم بورشييف » وهو حاكم دخل « جلابوف » على جواد أبيض وأحرق المدرسة وألغى التعليم ، وكان حلمه أن يجعل الخط المستقيم ينتصر فى كل مكان — فى عقول الرجال كما فى الشوارع ! « وبابتداء حكمه ، توقف مجرى التاريخ » . كذلك كانت بعض فصول الكتاب تشير إلى حوادث تاريخية شهيرة ، وإن كانت قد بُعثرت فيها هنا وهناك بعض إشارات جريئة وتلميحات قاسية لدرجة أن الرقباء لم يجرؤوا على تعرف وجه الحقيقة ، وإلا اتهموا بأنهم يستنتجون اعتبارات لا توحى بالاحترام عن الإمبراطور والإمبراطورة ! ! والحقيقة أن السلطات أرادت أن تلعب دور الأصم الأعمى ، لأن الطريقة التى هاجم بها « سالتيكوف » مفاسد زمنه كانت دقيقة محكمة ، ولأنه حينما أشار إلى التاريخ قال فى مقدمة القصة « إننى لا علاقة لى بالتاريخ . . إن ما يهمنى هو الحاضر » ! وعندما كان « سالتيكوف » يقص مغامرات حكام « جلابوف » التى تتلخص إصلاحاتهم فى زرع أشجار الفار وتشجيع زراعة الخيار ،

أو عند ما كان يقصّ خبر الثورات التى كانت تشب بين آن وآخر من جانب النواب ضد عصابات المحتالين ، كان يتحدث بطريقة جعلت المثالب التى انتقدها صورة للحياة المعاصرة فى ظل القياصرة ! !

كذلك كانت ملاحظاته عن خصائص المواطنين فى « جلابوف » خبيثة أيضاً . فقد قال « سالتيكوف » : كان لدى أهليها شيء من القوة فى قديم الزمان قبل أن يغيّر جوبتر اسم المدينة من أمنوف (مدينة العقل) إلى جلابوف (مدينة الحمق) ولكن نومهم قد طال واستمر لعدة قرون ، وليس فى استطاعتهم الآن إلا أن « ينحنوا ويعرقوا » ! !

ولم يُنزل هجاء «سالتيكوف» ضربته على الحكام بفظاظتهم واستبدادهم فحسب ، بل تناول المواطنين بوجه عام لسلبيتهم وجبنهم . فقد كان «سالتيكوف» يسمى نفسه « رجلاً متحزباً » ، وكان يعنى بهذا أنه — بعكس الكتّاب الآخرين — يؤمن بمبادئ سياسية ثابتة . ومن ثم كانت كتاباته رمزاً للاشتراكية الثورية فى ذلك الوقت . فهو فى مهاجمته للأوتوقراطية ، ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه أسلافه الأدباء . فلم تكن « قصة مدينة » عرضاً لمظاهر عزلة خاصة فحسب ، أو استعراضاً للأدواء الاجتماعية فى ذلك النظام ، ولكنها تناولت الدولة الروسية فى

كيانها التاريخى ، وهاجمت كل ما نتج عن القيصرية . فبينما استطاع سابقوه أن يثيروا الضحك ، استطاع « سالتيكوف » أن يثير الاشمئزاز ، ويلهب الرغبة فى الحرب ضد أمثال «اجريوم بروشييف » فى روسيا !

وفى الواقع ، يجب أن تُقرأ كتب « سالتيكوف » بعناية حتى يُستطاع فهم قوى البغضاء والقسوة التى أدت إلى الانفجار المرعب للثورة الروسية والحرب الأهلية . ويقص علينا «تارجينيف» الذى حضر قراءات عامة لبعض كتابات « سالتيكوف » الهجائية كيف أن صداها بين المستمعين كان قويا ، إذ كان سوط الهجاء يضرب بشدة ، ولم يسلم منه أحد . كذلك كتب جوركى يقول : « كان سالتيكوف ذكيا أميناً عنيفا ، فلم يحد قط عن قول الحق مهما كان مؤلما . . إنه كاتب عملاق ، ومجال إبداعه كبير . . . والضحك الذى يثيره لا يشبه الضحك الذى يثيره جوجول . . . إنه مذهل صادق عميق قوى . . . ولا يستطيع أحد بدون قراءة « سالتيكوف » أن يعرف شيئا عن تاريخ روسيا فى النصف الثانى من هذا القرن » .

وبعد نشر « الصور الإقليمية » (١٨٥٦ — ١٨٥٧) صار العرض التهكمى للموظفين الإقليميين إحدى ميزات «سالينكوف» الرئيسية . فبدلاً من تركيز نيرانه على بيوقراطية

سانت بطرسبرج كما جرت العادة فى آداب الواقعية الانتقادية ، كرّس انتباهه إلى الطغاة المحليين الذين كانوا يحكمون الأقاليم النائية فى الإمبراطورية المترامية الأطراف بيدٍ من حديد .

ومن ثم كان كتابه « البومباردون والبومباردات » (١٨٦٣ــ ١٨٧٣) سلسلةً من الصور الأخلاقية عن الحكام الحمقى ذوى الخلق الفظ الذين كوّنوا طبقة تعيش على الرشوة ، وتصدر التشريعات حسب أهوائها ، وتخرق القانون ، وتقوم بمغامرات غرامية بعيدة عن الذوق الكريم .

وكان كتابه « الطشقنديون » وصفاً لصلف الشباب الشره الفارغ الرأس الذى يعتبر وظائف الحكومة فرصاً لزيادة الدخل ! وباختصار كانت النتيجة التى ينتهى إليها قراء قصص « سالتيكوف » هى « أننا تحت حكم خونة خادعين نصّابين مرتشين لا ضمير لهم ، وكلهم منافق فظ غليظ القلب » .

وكانت كتاباته الأخيرة « حكم الاعتدال والنظام » (١٨٧٤ ــ ١٨٧٧) و« التجاء مونريبوس » (١٨٧٩ــ١٨٨٠) و « خطابات إلى العمة » (١٨٨١ ــ ١٨٨٢) تسير على نفس نمط الكاريكاتير السياسى ، إذ هاجم « سالتيكوف » فيها جميعاً نبلاء الأقاليم والبورجوازية الجديدة ، وصوّر الطبقة الحديثة من الرأسماليين تصويراً يبعث على السخرية من التاجرين

« ديرانوف » و « رازوفييف » والحلاق « كولابيف » الذين صارت أسماؤهم رمزية . . كما قال « سالتيكوف » إن جميع رجال الأعمال ورثوا انعدام الضمير وشراهة البيروقراطيين القيصريين ، وإنهم كانوا كأسلافهم نبلاء المولد مغرمين بالسرقة واستغلال « قطعان الغنم الروسى » ! . ولم يخادع « سالتيكوف » فى كتاباته عن الفلاحين ، ولكنه كان يشعر بالخوف السائد من الرأسمالية . وإذ كان متصلاً أوثق اتصال بالحركة الشعبية ، فقد سندها فى نضالها من أجل « الحرية والكرامة الإنسانية » ، لأنه كان يحتقر ضيق عقلية الطبقة الوسطى ، كما كان مقتنعا بأن الرأسمالية المبنية على السلب ستطلب سنداً من عناصر السوقة والجهلة فى الشعب الروسى ! وعلى هذا ، كانت آراؤه التقدمية الراديكالية تتحد مع اتجاهه السلبى تجاه نمو الرأسمالية فى بلده ، ولو أنه كان يلحظ بين وقت وآخر عدم إمكان تجنبها . ومن ثم كان يساير التيار العام : فالميل ضد الرأسمالية فى الأدب الروسى (ويشمل جناحها الأيمن) أمر معروف مشهور ! !

وكان « سالتيكوف » يعمد فى هجائه إلى ما كان يسميه « لغة أيسوب » . فكانت صفحاته تحفل بتلميحات وإشارات وابتداع كلمات جديدة وتحريف كلمات دارجة وتعبيرات تجرى على لسان الفلاحين . . . ذلك أنه كان يهدف إلى أن

يجعل القارئ يرى فيما بين السطور ، ويعرف المغزى السياسى للمادة المتخفية المعقدة . وكان هذا الأسلوب المبتكر هو السبب فى عدم ذيوع أدب «سالتيكوف» خارج روسيا ، لأن « الأسلوب الأيسوبى » الذى كان يكتب به أعجز المترجمين ، وتركهم حائرين قلقين ، مما جعلهم ينصرفون عن ترجمة مؤلفاته .

ولقد لجأ « سالتيكوف » إلى هذه «الأيسوبية» — التى تحمل الرضا لقرائها واليأس للرقيب والمترجم — فى المجموعة التالية من كتاباته وعنوانها « قصص خرافية » التى تحوى بعضاً من تشبيهاته السياسية الناجحة . ولقد بدأ « سالتيكوف » فى كتابتها عام ١٨٦٩ بالقصة التى عنوانها : « كيف استطاع مزهوك واحد أن يغذى قائدين » ولكن هذه القصة لم تنشر إلا فى العقد الثامن : عندما جعلت مصادرة « مذكرات عن الوطن » استعمال اللغة الأيسوبية ضرورة ! وعلى الرغم من أن البوليس صادر بعضاً من هذه « القصص الساذجة » كما يصفها مؤلفها ، فإنها انتشرت انتشاراً واسعاً عن طريق النسخ الخطية . وكانت كل قصة من هذه القصص — بطريقة أو بأخرى — توجه لسعات سياطها إلى الأوتوقراطية ، وتبين انعدام الحرية فى روسيا . فالموظف الغيور (فى قصة تحمل نفس الاسم) الذى أوقف صرف التموين وأهمل الصحة العامة وحارب العلم ، يذكرنا بأجريوم بروشييف

فى « قصة مدينة » . . . كذلك حفلت هذه القصة بتصوير دقيق « لفلسفة الطغيان الروسى » فهو يقول فيها « كلما كان الموظف مكروهاً ، كان نافعاً للوطن » ! فإذا ألغى التعليم فهو موظف صالح ، وإذا أحرق المدينة ، فهو صالح جداً ، وإذا أرهب الشعب فهو ممتاز ! !

وفى رواية « الدب » : يأمر الحاكم الفظ بهدم جميع المطابع كإجراء تقتضيه مصلحة الأمن ! ! وفى رواية « النسر » يهزأ من محاولة القيصر رعاية الفنون فى بلد تسود فيه العبودية وإرهاب رجال الشرطة ! . وتهزأ قصص أخرى من المعتدلين . ذلك أن « سالتيكوف » كان يحتقر « الأرانب التى تضحى بنفسها » أو بمعنى آخر كان يحتقر أولئك الذين يعلو صوتهم ولكن سرعان ما يخفت إذا رأوا رجل الشرطة قريباً منهم .

وكان الانتقاد المر الذى يوجهه « سالتيكوف » مرده رغبته الجامحة فى تغيير الأحوال فى روسيا . وقد يُفسر هذه الرغبةَ الحب الذى تمتع به فى روسيا بعد الثورة ، فقد سجل النقاد تقريظهم له بمقتبسات من لينين وستالين ، وكلاهما قد عبّر عن إعجابه بهذا الفنان الفذ الذى يصفه النقاد والقراء الروس فى العصر الحاضر بأنه كان « يمثل الواقعية الإيجابية » التى تُستعمل كوسيلة لتغيير الحقيقة الاجتماعية ! ! ومهما كانت الأسباب ، فإن

الحب الذى تمتع به كان غير عادى . فبينما لم يُصرح بطبع سوى خمسة وستين ألف نسخة فقط من كتبه فيما بين عامى ١٨٩٧ ، ١٩١٦ ؛ وُزعت من كتبه خمسة ملايين نسخة فى الأحقاب الثلاثة التى تلت الثورة .

وهناك قليل من شك فى أن « سالتيكوف » الذى تأثر بشرنيشفسكى تأثراً كبيراً فى العقد السادس ، يعتبر أن للأدب وظيفة اجتماعية . فقد كان مصلحا سياسيا ، احتقر نظرية الفن لأجل الفن ، وسخر من القراء الذين شغلوا أنفسهم « بالتفاهات العاطفية » . وكان دائماً مستعدا لأن يدافع عن فكرته القائلة بأن « الرضا الفكرى هو الجوهر الوحيد لأى عمل فنى » .

ولا شك أن مزاج « سالتيكوف » وواقعيته ، ومعرفته الفائقة بروسيا — تلك المعرفة التى اكتسبها خلال أسفاره التى شملت بقاعاً شاسعة ؛ ومن عمله الإدارى — قد أنقذته من العاطفية والمبالغة اللتين كانتا سائدتين فى العقد السابع . فقد كان نضاله من أجل مصالح الشعب مسألة عدالة وعقل ، لا مسألة عاطفة . كذلك كان يشعر تماماً — حتى أكثر من اسبنسكى — بتأخر الجماهير وجهلهم . وكثيراً ما وجه هجاءه إلى الصبر « الخانع » لدى الشعب . فقد كان يتساءل : لماذا يقبل الفلاح فقره بذلة ومسكنة ؟ ولماذا يسمح الروسى العادى لنفسه بأن يُظلم ويُستغل؟

ولماذا يضحك الجمهور عندما يحطم رجل الشرطة (وقد كان سالتيكوف يسميه طبيب الأسنان) بقبضته القوية فك الصغار ممن يسميهم البوليس « مغتصبي القانون » ؟ . وهكذا كان يحس بشفقة نحو أولئك الذين ديسوا بالأقدام ، ولكنها كانت شفقة تمتزج بالاحتقار لسلبيتهم وجمودهم . كذلك كان هجاؤه لاذعا محملا بالازدراء ، عندما كان يحاول إيقاظ الشعور بالكرامة الإنسانية عند الروسيين المستذلين لحملهم على تحطيم أغلال العبودية . وكان فى نفس الوقت يحب « الناس العاديين » ويعرف مقدراتهم ، ومن ثم ساند الفلاحين ضد الموظفين والنبلاء وملاّك الأرض والبورجوازية – تلك الطبقات الأربع التى كانت هدفاً لهجماته التى لا ترحم .

وكان المنبع العاطفى لشعبيته ، هو حبه العنصرى لشعب بلده العظيم . . فقد كان يحب تكوينهم الجثمانى ، وعقليتهم ، وحديثهم الطلى ، وأغانيهم المرحة . . . وقراهم التى عضها الفقر بنابه ، ومناظر الريف الحزين ، وقد كتب (ميخائيلوفسكى» فى مقال عن « سالتيكوف » يقول « إن حبه للشعب الروسى وللأرض الروسية لا علاقة له بالتحليل المنطقى . . . لقد كان حبا تلقائيا ، لأن سالتيكوف كان روسيا أصيلاً . وعلى هذا فقد كان يجذبه كل شىء له نكهة روسية » !

ومن المتفق عليه بصفة عامة أن قصة « عائلة جولوفليف » ، و « قصة مدينة» هما أخلد أعمال «سالتيكوف». ذلك أن كثيراً من كتاباته الأخرى — ولو أنها تعطينا سجلا غير عادى عن الحياة الروسية بين عامى ١٨٤٨ ، ١٨٨٨ — موضوعية ، لدرجة أن فائدتها مقصورة على إعطاء لمحات تاريخية للقارئ الحديث . غير أننى أعتقد أن « الأزمة القديمة فى بوشيخونى » وما تحويه من دراسة نفاذة عن عبودية الأرض ، يمكن أن توضع فى صف واحد مع أحسن ما أنتجه « سالتيكوف » . كذلك يعتبر بعض من هجائه وخاصة « قصص خرافية » منطبقاً تماماً على حالة روسيا اليوم ، كما كان منطبقاً على حالتها بالأمس . . فهذه القصص تصور ضروباً من الفساد ما زالت موجودة فى الحياة الروسية . ولقد كتب « إسكندر هرزن » فى العقد السابع يقول : « هل تتصورون أيها الرفاق أنه فى مكنتكم أن تلقوا بقصص سالتيكوف فى البحر لكى تتخلصوا من مساوئكم ؟ . . إنكم لمخدوعون إذا اعتقدتم ذلك » .

واليوم أيضاً لا تستطيع روسيا المعاصرة ، أن تلقى بهذه القصص فى البحر لكى تتخلص من مساوئ حياتها ! .

الجزء الثالث

كتّاب التربة الإقليميون
والشعراء الأرستقراطيون !

- بافيل مالنكوف
- ديمتري مامين
- نيقولا ليسكوف
- شعراء العقد السابع

الفصل الأول

كتاب التربة والشعراء الأرستقراطيون !

كانت « رائحة التربة » — النزعة الأقليمية المحلية الضيقة — التى اكتشفها نقّاد العقد الخامس فى كتابات « بسمسكى » هى المسيطرة على كتابات العقد السابع . فقد وجدت فى مؤلفات أكثر الكتاب تنوعاً — فى روايات « ليوتولستوى » الإقطاعى ذى اللقب ، وفى صور « اسبنسكى » البوهيمى الشعبى ، وفى هجاء « ميخائيل سالتيكوف » الموظف الحكومى الثورى .

وكان كتّاب التربة روسيين مائة فى المائة فى تصويرهم لأنماط البيّئة ، وخاصةً فى لغتهم التى كان أساسها لغة الفلاحين. ومهما كانت آراؤهم السياسية ، فقد حاول معظم الكتّاب استعمال الشعار السائد : « فى سبيل الاتحاد مع الشعب » .حتى الكتّاب الذين كانوا يناهضون الراديكاليين والشعبيين بشروا « باستئناف الوحدة المفقودة بين الطبقة المثقفة وعامة الشعب » .

واتخذ هذا الاتجاه فى بعض الأحوال شكل « الإقليمية » التى ظهرت بوضوح فى كتابات صغار الكتّاب مثل « بول

ياكوشكين » (١٨٢٠ – ١٨٧٢) جامع أغانى الفلاحين ، والمكتشف « سرجى ماكسيموف » (١٨٣١ – ١٩٠١) مؤلف كتاب « عام فى الشمال وارتياد روسيا » ، والروائى المؤرخ « جريجورى دانيلفسكى » (١٨٢٩ – ١٨٩٠) وخاصة فى قصص « الهاربون فى نوفوروسيا » (١٨٦٢) ، و « عودة الهاربين » (١٨٨٣) و « الموجة التاسعة » (١٨٧٤) التى يتكلم فيها بصفة عامة عن جنوب روسيا بمزيد من التفصيلات .

١ ـ بافيل مالنكوف

ومن أهم ممثلى هذه المدرسة « بافيل مالنكوف » « ١٨١٩ ـ ١٨٩٣) الذى كان يكتب تحت اسم مستعار هو « أندريه بشرفسكى » الذى قال النقاد إن ملاحمه « فى الغابات » : و « على التلال » (١٨٨١) تُوضع فى صف واحد مع أحسن ما أنتجه « جونشاروف » و « بسمسكى » . ولكن « مالنكوف » لم يصل إلى درجة من الشعبية تتعادل مع ما وصل إليه معاصروه . ويبدو أن كثيراً مما كتبه من وصف طويل ، بعث السرور فى نفس المهتمين بدراسة الأجناس البشرية وإن كان يبدو ثقيلا ممضا للقارئ الحديث. ومع ذلك ، فقد كان المؤرخ «بستوشيف ـ ريومين » على حق حين قال عن مؤلفات « مالنكوف » : « إن الروح الروسية تتكلم بالروسية عن الشعب الروسى فى هذا الكتاب » كما كان « ألكسيس رميزوف » على حق كذلك فى اعتبار هذا المؤلف واحداً من ينابيع « المجرى القومى » فى الأدب الروسى .

وكان « مالينكوف » يشبه « سالتيكوف » ـ وهما يشتركان

فى خصائص كثيرة – فى كونه مؤلفاً بيروقراطيا . فقد كان إقطاعيا بالوراثة ، وتخرج من جامعة كازان الإقليمية على نهر الفولجا ، وصار معلماً وعالماً جيولوجيا ، ولكن دراسته للتاريخ وعلم الحياة القديمة والأجناس البشرية لم تستطع أن تضمن له دخلا معقولا ، فهجر « مالنكوف » الدراسة ، والتحق بوظيفة بوزارة الداخلية . ومنذ عام ١٨٤٧ إلى حين وفاته تقريباً ، كان يعمل بالحكومة ، وسافر فى بعثات رسمية إلى الأقاليم الشاسعة فى الفولجا والأورال . وإذ كان حجة فى الشيع الدينية ، لعب دوراً إيجابيا فى الحملات ضد « المعتقدين فى القديم » فى الوقت الذى كانت الحملات المسلحة والضرب بالسياط وتحطيم المعابد تُعتبر فى العقدين الخامس والسادس من أفضل الوسائل لإقناع « الهراطقة » . ولقد استخدم « مالنكوف » بدوره – كموظف حكومى – هذه الإجراءات الغير إنسانية ، فأعطى بذلك الأحرار الحق فى أن يسموه « الرجعى الغليظ القلب » وأن يؤنبوه على أفعاله المتهورة .

ولكن بينما كان « مالنكوف » الموظف الحكومى يضطهد هؤلاء المعتقدين ويسمى معتقداتهم الدينية انحرافاً عن الديانة الصحيحة ، فإن « بشرسكى » الكاتب – وهو مالنكوف نفسه – قد وصفهم بعطف ومحبة . فكتاباه « فى الغابة » و « على

التلال » سجّلا مظاهر الحياة والعادات عند المعتقدين القدامى وأصحاب الطقوس القديمة الذين هربوا من الاضطهاد إلى غابات الأورال ، حيث كوّنوا مجتمعات جديدة تحت إشراف كبار السن منهم ، وبنوا المعابد ، واستمسكوا بطريقتهم القديمة فى الحياة . واكتشف « ماالنكوف » أنهم كانوا شيئاً أكثر من مجرد طبقة من المتعصبين يعتبرون التقاليد البيزنطية والكتب الدينية القديمة كينابيع للحكمة . . . فهؤلاء المتزمتون الباحثون عن الحقيقة كانوا أيضاً حفظة اللهيب الروحى . وكان لأغانيهم وقصصهم رنين الشعر الصحيح . فى المنازل الخشبية الكبيرة التى كان يملكها الأغنياء ، وفى أكواخ الفقراء ، كانوا يتمسكون بأحوال « المسكوف » ومعتقداتهم فى القرن السابع عشر . وكان الكهنة بمظهرهم الخشن ولحاهم الطويلة ، والنساء بأثدائهن الكبيرة وأردافهن الثقيلة ، يستمعون إلى الروحانيات والغيبيات عن « مدينة كتزه » الغير منظورة القائمة فوق قاع إحدى البحيرات أو عن الجمال الوهاج لمملكة « أوبون » العجيبة ! !

وكان هناك ثمة حاجز مزدوج من الجبال والغابات يحمى هؤلاء المعتقدين من تطفل المدنية . وكان عليهم — شأنهم فى ذلك شأن الرواد الأمريكيين الأوائل — أن يناضلوا الطبيعة ، كما كانوا مضطرين أن يحيوا حياة خشنة من جراء النضال المستمر ،

مما جعلهم ذوى قوة جسمية وخلقية ، فأمسوا شجعانا وعمليين فى نظرتهم إلى الحياة .

ويقول « مالنكوف » إن كثيراً من الخصائص المتناقضة فى علم النفس كانت تسود حياة المعتقدين القدامى . فقد ساعدتهم عزلة الزمان والمكان على أن يستبقوا تحيزهم مصحوباً بإيمان عميق وخرافات ذات جذور عميقة ضاربة فى المسيحية الأولى . وكان « إله » هذه الجماعة قاضياً لا يعرف الرحمة ، فقد كان يثور لأقل مخالفة للقواعد الموضوعة ، ولم يكن يرضى عن أى نوع من أنواع الملذات أو إشباع النزوات ، كما كانت الحياة العائلية الصارمة فى حكم البطارقة تتمشى مع قانونه المتزمت .

ولقد قصّ « مالنكوف » المآسى التى كان يعانيها الشبان الذين أصاب البلى أجسامهم وأرواحهم نتيجة صرامة قدامى الكهان . وكان أحد الموضوعات الرئيسية فى روايات « مالنكوف » يدور حول النضال بين هؤلاء الكهان وبين رغبات الشباب التى تجرى مضادة لتعاليمهم .

وكانت روايات « مالنكوف » القصيرة بما فى ذلك قصتى «أهل كراسيلينسكوف» (١٨٥٢) و« بوياركوف » (١٨٥٣) ذات تأثير قوى رغم حركته البطيئة فى واقعيته العتيقة ، ورغم

التفصيلات الكثيرة عن الجنس البشرى . ولكن وصف الطبيعة واللغة الرتيبة التى كان يستخدمها ، والتعمق فى البحث، كل ذلك كشف عن أصالة أدبية . وفى الحق أن « مالنكوف » كان متعلقاً أشد التعلق بلغة روسيا فى العصور الوسطى ، وحاول أن يستعيد قدرتها على التعبير ، كزميله « لسكوف » الذى كان يهتم بما أسماه « اللغة الصناعية » التى كان كتبة المحال التجارية والحوذية واللصوص والرعاة والصناع يستعملونها . وقد أسماها « صناعية » لأنهم كانوا يلوون الكلمات ، ويخترعون تعبيرات جديدة ، ويغيرون من المصطلحات الأجنبية لكى تتفق مع النماذج اللغوية الروسية ، كما أحيوا البالى من الكلمات . وإذ كان شغوفاً بلغة « المعتقدين القدامى » النقية الحية ، المليئة بالتعبيرات اللاذعة والمقتبسات الكنسية ، حاول « مالنكوف » أن يبعث فيها الحياة . ومن ثم لم يكن عجيباً أن يعرب كثير من الكتّاب ، من « ليسكوف » إلى « أندريه بيلى » و «ألكسيس رميزوف» الذين حاولوا بعث الروح القومية فى المصطلحات الأدبية فى عصرهم ، عن تقديرهم لكتابات « مالنكوف » ، وأن يقتبسوا من مؤلفاته .

كذلك كان « مالنكوف » بلا شك ذا تأثير فى أسلوب « جوركى » . ومما يؤسف له أن هذا المظهر من أدب «جوركى»

لم يُدرس دراسة كافية . وباختصار يُعتبر « مالنكوف » واحداً من الرواد فى الأدب الروسى بالنسبة لموضوعات رواياته الغير عادية ، ووصفه للبيئة ، ودراسته الأجناس البشرية بطريقة لم يسبقه إليها أحد .

٢ – « ديمترى مامين »

وفى العقدين الثامن والتاسع ، كان يمثل الإقليمية كذلك « ديمترى مامين » (١٨٥٢ – ١٩١٢) الذى كان أبوه كاهناً ريفياً فى الأورال . وقد درس « مامين » فى حلقات بحث فى « برم » وفى « سيبريا » ، ثم ذهب إلى « سانت بطرسبرج » حيث صار صحفيا تحت اسم مستعار هو سيبير ياك (السيبيرى) ولذلك يُشار إليه عادة باسم « مامين سيبير ياك » .

ولقد كانت مواهبه أقل أصالةً من مواهب « مالينكوف » ، فرواياته الواقعية مليئة بالكلمات ، ومليئة بالأوصاف والأشخاص والعقد الفرعية ، مما جعلها ثقيلة لدرجة أنها وُصفت بأنها لاشكل لها . . ولكنها كانت رغم ذلك ذات قوة أشبه بتلك التى توجد فى كتابات « زولا » و « دريزر » . ولكن مؤلفات « مامين » مكتوبة بعجلة وبساطة ، ولا ترتفع مادتها إلى الدرجة الفنية . ومع ذلك ، فشخصياته مرسومة بدقة ؛ وكثير من عقد رواياته حية وديناميكية ؛ فهى تصور نمو الرأسمالية فى الأورال حيث اتخذت لها أشكالا وحشية . وكان « مامين » يعطف على

الشعبيين ، فكتب عن استغلال ذوى الشره والجشع للفلاحين ، وعن استغلال خربى الذمة من المحامين والمهندسين للعمال . ولعل أفضل روايات « مامين » هى « المحاربون » (١٨٨٣) و « ملايين بريفالوف » (١٨٨٤) و « الخبز » (١٨٩٥) وكلها تبين الانحطاط الخلقى الناتج من سطوة المال . ففى « الخبز » مثلاً ، نجد تجار الحبوب لا يقفون عند حد من التزوير والقتل لتكديس ثروات طائلة . . . وفى « خطوط من حياة بيبكو » (١٨٩٤) حاول « مامين » أن يثبت أن نفس عملية الانحلال الخلقى تحدث فى الطبقة الوسطى عندما تلوثها العقلية الرأسمالية ويتحكم فيها قانون البقاء للأقوى . . وروايته المسماه « إخوان جورديبف » (١٨٩١) وهى واحدة من أفضل رواياته ، تمثل الواقعية الروسية تمثيلاً حياً .

وبالرغم من انعدام الصنعة والشكل فى كتابات « مامين » ، فقد لعبت دوراً بارزاً فى نمو الإقليمية . فقد كانت رواياته تتحدث عن الأورال وسيبريا ، منبئة بأنه سيأتى يوم يهز فيه شعراء وروائيو الأقاليم فى هذه الأراضى الشاسعة ، الحياة وتقاليدها هزاً عنيفاً .

٣ ـ « نيقولا ليسكوف »

وثمة كاتب آخر ، أطلق على نفسه اسم تلميذ « مالينكوف بشرسكى » ، أثبت أنه متفوق على أستاذه ، وأسس مدرسة خاصة به ، هو « نيقولا ليسكوف » (١٨٣١ ــ ١٨٩٥) الذى يُعتبر أحد ممثلى التقاليد العظيمة فى الأدب الروسى .

وقد كانت حياته الأدبية غير عادية . ففى العقد الثالث ، كان اسمه ممقوتاً بين أفراد الطبقة المثقفة التقدمية الذين كانوا يمقتونه كمؤلف لرواية « لا مخرج » (١٨٦٤) ، هذه الرواية التى هاجمت « النزعة الفوضوية » هجوماً شديداً ، وكذا قصة « الخناجر المسلولة » (١٨٧١) وهى قصة طويلة مسلسلة ، وصف فيها الثوار بأنهم قطاع طرق ، والمثقفين الأرستقراطيين بأنهم « طبول مدوية » . وثرثارون ذوو نظارات ولحى ! وإذ مقته التقدميون والثوار ووصفوه بأنه « رجعى » ، اضطر النقاد إلى إهماله فى النهاية ، الأمر الذى جعل « ليسكوف » لعدة سنوات يشعر أنه مضطهد ، وأن منافسيه يضعون العراقيل فى طريقه. ولم يكن ثمت تقدير ملحوظ لعمله أثناء حياته . ولم يوضع فى صف « بيسمسكى » و « استروفسكى » أو « دستويفسكى »

إلا فى نهاية القرن . ومنذ ذلك الوقت أخذت شهرته فى النمو المستمر . وحتى قبل الثورة ، شقت كتاباته لها مكاناً بين كتّاب الروس الكلاسيكيين . كذلك عبّر كثير من الكتاب فى العهد السوفييتى ، من « زامياتين » ، إلى « جوركى » عن إعجابهم بإنتاجه الأدبى .

وكانت عائلة « ليسكوف » مكونة من الكهنة والتجار . أما أبوه فكان موظفاً صغيراً ، ولكن أمه كانت من طبقة النبلاء.. ولم يحصل « ليسكوف » إلا على قدر ضئيل من التعليم ، فصار — على نقيض معاصريه — كاتباً بفضل تجاربه الشخصية لا بفضل ثقافته . فقد عمل كموظف مدنى فى « أوريل » و « كييف » ثم تولى إدارة إحدى الضياع وأشرف على مزرعة ، ثم أصبح رجل أعمال . وسافر فى أنحاء روسيا ، وقابل مجموعة عجيبةً من الناس ، وجمع مادةً طائلة من التجارب .

وفى عقده الثالث ، بدأ الكتابة تحت إصرار أصدقائه الذين أثّر فيهم ما وجدوه فى خطابات العمل التى كان يحررها من ذكاء وفطنة . وبعد ظهور أولى قصصه « الكبش » (١٨٦٣) وأولى رواياته « لامخرج » (١٨٦٤)، كتب روايات وتاريخاً وقصصاً ومقالات وقصةً تمثيلية واحدة « المقتصد » ، وحوت الطبعة التى جمعت كل إنتاجه (١٩٠٢ —

١٩٠٣) ستة وثلاثين مجلداً .

وكان « ليسكوف » رجل مصالح متعددة ، وعواطف متضاربة ، وقوة جسدية طالما كانت فى نزاع مع ميوله الدينية . ولقد قضى وقتاً طويلا يدرس الفن الشعبى القديم : عادات الناس وأغانيهم الشعبية وتراثهم القديم ، فساعده ذلك على أن يصبح خبيراً فى الساعات القديمة ، وفى المطبوعات الإنجليزية ، والأحجار الكريمة ، وأدب المعتقدين القدامى . وامتزجت شدة إحساسه الفنى ومعرفته الممتازة فى النقش والعمارة بعنصر شهوانى . ومن ثم وجد غبطة عظيمة فى حوادث الحياة الكثيرة الألوان . وكان يحب الأخلاق الشاذة ، والعادات المتقلبة ، والفكاهة الخالية من المعنى ، والمواقف الغير متوقعة ، والنهايات المفاجئة ، ويفسر هذا الحب للألوان المتعددة ، الثروة القصصية فى رواياته ، والحيوية العجيبة فى أسلوبه الفريد . ومع هذا ، فقد كان مولعاً بالعواطف السامية .

وكثيراً ما أشار إلى إمكان تنقية الغرائز البدائية بالحب والتضحية والبحث عن الحقيقة . ويوجد فى معظم أقاصيصه موضوع مركزى ، هو موضوع الخاطئ الذى يصل إلى مرتبة الطيبة عن طريق مطهر للجريمة أو الشهوة . وكثيراً ما كتب « ليسكوف » عن الخطايا الأولى التى فيها يصير بطل قصته

« دون كيشوت » من طراز سلافى .

كذلك كان « ليسكوف » واحداً من الكتّاب الروس القلائل الذين صوروا الأنماط الأخلاقية الإيجابية . وكان يبحث دائماً عن تجسيم قدسى للطيبة . ويصورُ قليل من أفضل قصصه القصيرة رجالا سذجاً بسطاء يحاولون أن يحيوا حياة أمينة صادقة بالرغم من الرجس والشناعة فى بيئتهم .

وكان بطل أعظم روايات «ليسكوف» ـ شعب الكاتدرائية ـ (١٨٧٢) رجل فضيلة . فالقس «بتروسوف» كان رجل فضيلة وقوة خلقية ، وهو يحارب فى معركة خاسرة ضد موظفى الكنيسة ، فهو يحتقر البيروقراطيين الدينيين ، ولو أن محاولاته لإحياء الإيمان والأخلاق المسيحية تصطدم بمصالح رؤسائه السياسية والدنيوية ، واستمر حتى يوم موته يرفض بإلحاح أن يحيد عما اقتنع به . وكان مثله فى ذلك مثل « أفاكوم » الذى يشبهه من وجوه كثيرة .

وفيما عدا القسم الذى يصور فيه الراديكاليين تصويراً كاريكاتوريا ، فإن سجل الحياة الإقليمية وحياة صغار الكهنة كان عملاً ملحوظاً : فهو قوى وعاطفى ، وشخصياته من أفضل ما ابتدع القصص الروسى الواقعى . ومما صادف فيه نجاحاً ملحوظاً ، تصويره لشخصية الشماس القوى « إكيلا » الذى

كان من القوزاق سابقا ثم كرس قوته الجسمية وعواطفه الملتهبة للدفاع عن الدين . فقد كان واحداً من رجال « ليسكوف » ذوى الاستقامة الخلقية ، وهو رمز للقوة الكامنة فى الشعب الروسى .

ورواية « شعب الكنيسة » كانت بلا مؤامرات غرامية ، ولكن عوّضها عن ذلك مزيجٌ من الحرارة الإنسانية والذكاء الحاد . فقد شُيدت على مستويات مختلفة ، وذهبت تلميحاتها إلى أبعد من حدود العقدة والقصة . فهى تعالج — ضمن ما تعالج — نفس المشكلة الخاصة بالمسيحيين فى المجتمع الحديث ، التى غزت أفكار « دستويفسكى » فى قصتى « الأبله » و « إخوان كارامازوف » . وكانت شخصية « بتروزوف » واحدة من قلائل شخصيات الأبطال « الإيجابيين » فى النثر الروسى فى القرن التاسع عشر — فهو لم يكن رجل إيمان وكرامة فحسب ، بل كان ذا ذكاء خارق وعلم غريز . فنضاله ضد الشكلية ، والتزمت ، ورغبته فى الإصلاح ، نتجت من تفسيره لطبيعة الحق ، والقانون المسيحى . فالنفوس البسيطة مثل مساعده أو الشماس « إكيلا » منجذبة إليه بالغريزة . وهنا ، وبالرغم من الأسلوب المحزن فى الفصول الأخيرة ، يوجد العزم والأمل فى رواياته . فالمعجبون بشخصية « بتروزوف » يشعرون بقوته

الروحية ، فهم يحترمونه كمدافع شجاع عن المسيحية النقية ولكنهم فى الوقت ذاته ، يحبونه كممثل حقيقى للخلق الروسى . وهكذا تبرز العواطف الدينية والوطنية . ويبدو أن « ليسكوف » يتفق مع « دستويفسكى » فى أن الروسى الطيب معناه المسيحى الطيب !

غير أن المؤلفات التى كتبها « ليسكوف » مستوحياً فيها المثل العليا المسيحية عن قدامى القديسين والكهنة الأمناء المحدثين ، جعلت المحافظين يشكون فيه ، فقد اتهموه بالمغالاة فى وصف بؤس الحياة بين صغار القساوسة ، وبالغرابة فى وصف حمق موظفى الكنيسة وغبائهم . كما أن قصصه عن الحياة بين الأساقفة ، ولو أنها كانت سليمة أمينة ، قد أثارت حفيظة رقباء الكنيسة ، فأعلنوا أن « ليسكوف » ليس إلا فوضويا متخفياً و « روحاً متمردة » و « رسولا للثورة » . وفى العقد الثامن ، فُصل « ليسكوف » من خدمة الحكومة ، بعد أن ظل فى وظيفته عدة سنين — وعلى هذا ، فقد وجد نفسه مرفوضاً من اليمين ومن اليسار ، ولم تقدّر أعماله إلا بعد وقت طويل .

وليست روايات « ليسكوف — فيما عدا « شعب الكنيسة » متميزة ككتاباته الأخرى ، ولو أنها غالبا ما تكون مثيرة — وبعضها مثل « المخدوع » (١٨٦٥) تنتمى إلى كتاباته الجدلية ،

فهى تقر انحلال « الفوضوية » ، ومليئة بالمؤثرات الروائية ، والإشارات الصحفية . ولم يدع « ليسكوف » فرصة للربط بين عقدة رواياته وبين الحوادث الواقعية ، تفلت منه . فقد أفاد فائدة كبيرة من فضائح ذلك العصر التى كانت تُروى فى المحاكم (قصة « يوم شتاء » ١٨٩٤) . كذلك حفلت رواية «سكان الجزر» (١٨٦٧) التى صوّر فيها شابا فى أحد الأحياء البوهيمية فى العاصمة ، بصفحات بارزة ، كان أسلوبه فيها يشبه إلى حد كبير أسلوب « دستويفسكى » . وهناك مجموعة أخرى من الروايات ، تتضمن قصصا تاريخية ، أظهر فيها « ليسكوف » معرفة واسعة بالأزمنة الغابرة وعاداتها ولغتها .

وتحتوى قصتا « الأيام القديمة فى بلود وماسوفو » التى بدأ نشرها عام ١٨٦٩ و « عائلة فى طريق الانحلال » (١٨٧٤) على مجموعة منحلة من الارستقراطيين ، والفلاحين ، والمواطنين ، وهى تنبئ عن اهتمام « ليسكوف » بالأصول التاريخية للخصائص الشخصية القومية — فهو يعود إلى الأصل فى محاولته تقرير أساس العادات الروسية والفكر الروسى . . أما كتابه الأخير « أرنب الحديقة » الذى لم يكمل حتى عام ١٨٩٤ ، ولم يُنشر حتى عام ١٩١٧ . فمختلف عن الروايات الأخرى فى أنه إحدى القصص الطويلة التى تُظهر روحه الفكاهية اللامعة

وصنعته الأدبية الأصيلة .

غير أن « ليسكوف » أفضل ما يمكن فى قصصه ورواياته القصيرة . وأهم مؤلفاته القصيرة « المتجول المسحور » (١٨٧٣) وهى تحفة أدبية تنتمى إلى الفئـــة التى قلما توجد فى الأدب الروسى فى القرن التاسع عشر ، لأنها قصة تصويرية . فترى فيها « إيفان فلياجين » المتجول ، وهو عبد سابق ، دفعه عدم الاستقرار الجسمى والنفسى إلى التجوال فى روسيا ؛ فيسجنه التتار ، ويهرب ويصير ممثلا وبائعاً وتاجر خيل ، (أو كما يسمى نفسه « قاضى لحوم الخيل ») وجنديا وفارسا ، وأخيراً وبعد تغيرات كثيرة ، يصبح « صبيا » فى أحد الأديرة . وفى الوقت الذى يقص فيه قصته يكون فى رحلة للحج إلى شمال روسيا . ويقص الحاج حياته العجيبة بلغة يطرب لها محبو الروسيين . وفى النسيج اللغوى ، تغدو الرواية حيةً وفكاهيةً إلى درجة عجيبة مليئة بالألغاز والمصطلحات الشعبية ، ولكن إنشاءها فى نفس الوقت محكم ومعبر . وبالرغم من خشونته وقسوته التى تبدو بين آن وآخر ، وعواطفه المتفجرة ، فإن « فلياجين » يحب الطبيعة ويحنو على الأطفال والحيوانات الذين يفهمون بالبداهة نتيجةً لحبهم « الجمال » و « كمال الطبيعة » . فقد كان الجمال بالنسبة له يتمثل فى الغادة الغجرية « جروشا » التى تشبه القُبْلة

منها « لقمةً من الاسبرج المغموس فى السم ، تبعث ألماً محرقاً فى الدم حتى يصل إلى القلب » ، ولكن « فياجين » يتحمل الألم ويرتكب الجرائم فى سبيلها ! .

وكانت شخصية « فلياجين » أسطورية . . . فرحلاته الكثيرة تشبه رحلات أبطال الأساطير . . وهو كذلك قريب الشبه من الشماس « أكيلا » .

وتعالج قصة « المتجول المسحور » نفس المشكلة التى أثارها «دستويفسكى» عن « ميتيا كارامازوف » و« ستافروجين » وهى مشكلة الجنوح إلى الحد الأقصى . فشخصية « فلياجين » ترمز للشعب الروسى .. ونهاية القصة واضحة كل الوضوح : فعندما يسمع « فلياجين » الشائعات عن الحرب ، ينسى أنه كان قد قرر أن يصير راهباً ليكفر عن خطاياه ، فيبدى رغبته فى التطوع ، ويقول لسامعيه وقد تملكتهم الدهشة : « إننى راغبٌ كل الرغبة فى أن أموت لأجل الشعب» . وأساس المثل العليا فى ذلك القلب الطيب هو — فى نظر « ليسكوف » — أهم مسحة فى الخلق الروسى . فالبحث عن « طريقة الحياة المستقيمة الفاضلة » فى روسيا كان لا يزال مستمرا .

وتُظْهر « المتجول المسحور » الخصائص البارزة فى أدب « ليسكوف » : الخطوة السريعة فى رواية « الحكاية » والتنوع

المثير فى الحوادث ، ووفرة العمل والحركة الروائية ، (وهو فى هذا يشبه دستويفسكى) و « البناء المسلسل » للقصة أى سرد حادثة تلو الأخرى ، بما فيها من عقد فرعية وأحداث مثيرة . وهذه « المأساة الفكاهية » فى الحياة — كما يسميها « ليسكوف » — هى أيضاً صورة من روسيا بأقاليمها المختلفة : الاستبس ، والفولجا ، والقوقاز ، ووسط روسيا ، وبحيرة لادوجا .

ولقد أتاحت أسفار « فيلياجين » وحبه للخيل للروائى « ليسكوف » فرصة تعرفه بأشخاص من مختلف النحل . . فمن المتشردين ورعاة الغنم والغجر . . إلى ضباط الجيش والأرستقراطيين ، ومن أسواق الريف ، وسوق الخيل وحظائرها إلى الثكنات والضياع والمجاهل الشاسعة .

وتشبه هذه التحفة شبهاً كبيراً قصة طويلة أخرى « الملاك المختوم » (١٨٧٣) ، يحكى لنا فيها الراوية «مارك ألكسندروف » — وهو صانع فنى ومحب للفن الدينى القديم — عن البلايا التى حلت بمجموعة من « المعتقدين القدامى » يعملون فى بناء قنطرة على نهر الدينيبر — فقد صادر البوليس الملكى ايقوناتهم ، ووضع الضباط الحمقى الأختام على الصور المقدسة . فبكى المعتقدون وهم يرون الشمع الساخن يذوب ويغطى وجه الملاك الحبيب ! ولا ينجح فى إعادة هذه الايقونات المقدسة إلى العمال

الأتقياء سوى معجزة يقوم بها قديس ! . وفى النهاية ترتد هذه الشيعة وتنضم إلى الكنيسة الأرثوذكسية ، ويزيد من قوة هذه الحبكة المسلية ، الحيوية والتفصيلات البصرية والسمعية ، والمعرفة العميقة بالفن الدينى القديم والعادات الشيعية .

ويظهر ذكاء « ليسكوف » الحاد وميله إلى استعمال الغريب من الكلمات ، واللعب بها ، وتعقيدات الأحاديث الشيعية والتغييرات التاريخية والاجتماعية — يظهر هذه كله فى أحسن مظاهره فى قصته « سميث الأحول الأشول والبرغوث الصلب » (١٨٨١) . ويحكى القصةَ مهرجٌ فى سوقٍ من أسواق المزهرك وأصحاب الحوانيت الصغيرة والجنود الذين يزأرون بالضحك عند سماعهم ما فى كلامه من ثورية وعبارات غريبة واصطلاحات فنية! . وموضوع القصة برغوث من الصلب متناهٍ فى الصغر أهداه البريطانيون إلى القيصر ألكسندر الأول فى رحلته بعد هزيمة نابليون ، لكى يبينوا للقيصر مهارة الصناع البريطانيين . والبرغوث يرقص عندما يُملأ . ويعتقد نيقولا الأول خليفة ألكسندر أنه ليس فى استطاعة أى روسى أن ينتج مثل هذا العمل الدقيق . . ولكن « بلاتوف » وهو قائد قوزاقى جامد خشن شغوف بالدفاع عن الشرف القومى ، يجد حداداً أمياً فى « طولا » وهى مدينة ذات شهرة قديمة بمن فيها من صانعى

الأسلحة والحدادين — ويقوم الحداد الأحول الأشول بصنع برغوث أدق من البرغوث الإنجليزى تز ين أرجله « حدوة » دقيقة ! ! ويستدعيه الإنجليز إلى لندن ، ويحاولون أن يغروه على البقاء فيها ، ولكنه يجد الجو مليئا بالضباب ، ويكتشف أن الو يسكى ليس قويا كالفودكا ، والحلوى ليست حلوة المذاق كالحلوى الروسية ، فيقفل راجعا إلى وطنه ، وهو يدندن بأغانى « هومر » ، ويراهن إنجليزيا على الشراب ، ويقع فى نوبات من الهذيان فيضربه رجال الشرطة ويسلبون ما معه ، وأخيراً يموت فى مستشفى خيرى ! ! وهكذا فإن هذه التحفة الفكاهية تضرب على نغمة واحدة : هى المواهب الكامنة فى الشعب الروسى . فالحداد الأشول قد أدهش الأجانب ، كما أدهش « مارون المزهوكى » فى قصة « الملاك المختوم » المهندسين الإنجليز والألمان ، عندما أظهر لهم طريقة حديثة فى تقطيع الصلب ، أو كما أدهش الفنان « سباستيان » الجميع بنقش أيقونة متناهية فى الصغر فى أقصر وقت ممكن .

وعندما وُضعت هذه القصة فى قالب تمثيلى بواسطة «يوجين زامياتين» حظيت بنجاح منقطع النظير فى موسكو وفى جميع أنحاء الاتحاد السوفييتى فيما بين عامى ١٩٢٠ ، ١٩٣٠ .

وترجع المهارة الكلامية فى قصص « ليسكوف » إلى الخبرة

الواسعة والبحث المستفيض . ولقد كتب يقول « إن اللغة العامية الشعبية الخشنة التى تملأ صفحات كتبى ، ليست من اختراعى . لقد سمعتها من الفلاحين ، أنصاف المتعلمين ، وأنصاف الأذكياء ، وأنصاف القديسين . . . ولقد طفقت عدة سنوات أجمع الكلمات والتعبيرات والأمثال ، التقطها من الشوارع ، ومن القوارب النهرية ، ومن مكاتب التجنيد ، ومن الأديرة ؛ وظللت سنوات أدرس بعناية النطق وطريقة الكلام فى المستويات والطبقات الاجتماعية المختلفة » . ومن ثم كان « ليسكوف » اختصاصيا فى « علم النحو الشعبى » ، وهو الاصطلاح الذى أطلقه أحد علماء اللغة الروسيين على عادة التهجية والنطق الخاطئ للكلمات والأسماء ذات الأصل الأجنبى أو العلمى .

وتتفاوت قصصه بين المآسى العابسة إلى الملاهى العابثة — فقصته « الليدى ماكبث فى حى متسنك » (١٨٦٥) مثلاً ، تكشف عن صنعته الدقيقة فى المأساة . فبطلة القصة « السيدة كاترين » تقتل حماها وزوجها العجوز وابن أخ صغير كان سيرث ثروة طائفة إسماعيلوف التجارية . وهى ترتكب كل هذه الجرائم إرضاء لعشيقها الذى كان يحقرها ويلعب بها ، وفى النهاية هجرها من أجل صبية صغيرة بيضاء اسمها « سونيتكا » . وعندما كان

المحكوم عليهم يساقون فى المعدية فى نهر الفولجا الذى انتفخ بمياه الأمطار ، تنقض « كاترين » على « سونتيكا » وتقذف بها إلى « الأمواج المظلمة » . وهكذا تنهى كل شىء بجريمة قتل رابعة ثم بحادثة انتحار ! !

وتمثل مآسيه الفكاهيـــة قصته « يوم الليل ذو الضجيج والعجيج » (١٨٩١) . وقد كُتب معظمها على شكل حوار . وهى تعالج موضوع المعجزات التى يقوم بها « إيفان من كرونستادت » وهو قسيس وقور يؤمن بمعجزاته كثيرٌ من التجار ! .

وتعالج قصة « خطأ طفيف » (١٨٨٣) بطريقة تبعث على السخرية موضوع عامل آخر يصنع المعجزات اسمه إيفان كوريشا — وهو فى الواقع رجل معتوه . بينما تقص علينا « شرتوجون » (نزهة الشيطان ١٨٧٩) ما حدث لأحد أفراد التجار من انحلال نفسى بسبب الخمر .

والفكاهة عند « ليسكوف » سطحية وخالية من التعقيدات . فهو يسخر من تعقيدات الحياة ، وتسره « الهرجلة » ، والمواقف والشخصيات المتشابكة ، ويستهويه الضجيج . وكان دائماً ذا صنعة تتراوح بين المكر والشفقة . ويعلل هذا الاتجاه وجود ازدواج فى فكاهته . فالهجاء الذى توسل به لم يكن حقيقيا ،

لأن الهجاء يتطلب عاطفة ، كذلك كانت سخرية « ليسكوف » متواضعة . فهو يلتمس المعاذير للضعف الإنسانى ، ويستهويه قالب القصة ، وضجيج الفكاهة ، والمرح « التهريجى » الذى تثيره الكلمة الفكاهية . وقد قال مرة « ما أنا إلا كناس ، وسأمسك بمكنستى دائماً لأزيح بها القاذورات من الطريق » .

فهذا الجامع للأمثال القديمة ، والذى تمتاز لغته بالطلاوة كالمجلة الملونة أو القماش الملون الحديث ، هو فى الواقع واحد من أدق الفكاهيين الروسيين . وتأثيره على « تشيكوف » — كما سنرى فيما بعد — واضح ظاهر . ويدين له الكثير من كتاب السوفييت وخاصة « ز وشنكو » و « زامياتين » بالكثير .

ولقد أثار تنوع الاهتمام عند « ليسكوف » والمظاهر الخاصة فى أسلوبه إعجابا واعتراضا فى الوقت ذاته . . . فمثلاً كان تولستوى يقول « إن « ليسكوف » يمتاز بفيض من المواهب » . . بينما كان « ديستويفسكى » ينتقد أبطال « ليسكوف لأنهم يستخدمون فى كلامهم « جملا جيدة التركيب » . أما « مشنكوف » وهو ناقد مشهور ، فكان يقول « إن أسلوب ليسكوف متناه فى الدسامة » . وكان « تشيكوف » من الناحية الأخرى معجباً « بليسكوف » « كمزيج من الرجل الفرنسى الرقيق والقسيس المشلوح » ! . ولعل أصدق وصف لليسكوف ، هو ما أورده

« جوركى » الذى تأثر هو نفسه تأثيراً كبيراً بليسكوف حين قال : «لم يكتب ليسكوف عن المزهوك أو الفوضويين أو الإقطاعيين وإنما كتب عن الروسيين أنفسهم .. فكلٌ من أبطاله عبارة عن حلقة فى سلسلة الرجال — فى سلسلة الأجيال . إن الإنسان ليشعر أن ما يشغل « ليسكوف » فى أية قصة من أقاصيصه ، هو مصير روسيا جميعها ، لا مصير فرد واحد من الأفراد . . إن ليسكوف واحدٌ من كتّاب الطليعة ، وقد شملت كتاباته روسيا بأكملها » .

٤ ــ شعراء العقد السابع

حفل العقد السابع بشعراء عظام ، وشعراء أقل قيمة ، من « نيكراسوف » إلى « بولونسكى » و « بلشيييف » . ومع هذا ، فقد ظل الأرستقراطيون والجماليون مخاصين لتقاليد « مايكوف » و « أكسييس تولستوى » .

وكان الشعراء الأرستقراطيون أكثر أهمية وتأثيراً فى العقد السابع ، بأشعارهم الغنائية التقليدية ذات الأوزان الكلاسيكية .

وكان أحد الشعراء المثاليين هو « الغراندوق قسطنطين رومانوف » (١٨٥٨ ــ ١٩١٥) الذى نشر تحت الحرفين « ق . ر . » ثلاثة دواوين من الشعر بين عامى ١٨٨٦ ، ١٩٠١ ، كما كتب قصة « ملك اليهود » وهى قصة تمثيلية بالشعر ، وترجم عن الشعراء الإنجليز والألمان .

وثمة شاعر آخر هو « قسطنطين سلوشفسكى » (١٨٣٧ ــ ١٩٠٤) الذى كان أكثر تعبيراً عن الجو الكئيب فى العقد الثامن ، فقد كان نبيلا وموظفا مدنيا ــ وبدأ يكتب فى العقد السادس ، ولكنه هوجم بعنف من النقاد الراديكاليين ، نظراً

« لروح السخط » التى سيطرتِ عليه . وظل صامتاً لمدة حقبتين. وفيما بين عامى ١٨٨٠ ، ١٨٩٠ نشر أربعة مجلدات من القصائد ، كانت روحها كئيبة متشائمة ، فشبّه بعض النقّاد نغماتها بالنغم الميت الذى يصدر عن تساقط أمطار الخريف .

وبنفس الطريقة التى كان يؤله بها شباب الراديكاليين « نادسون » ، كانت الطبقة العليا والبورجوازية المثقفة تعجب بشاعر آخر هو « الكسيس أبوختين » (١٨٤١—١٨٩٣) الذى أطلق عليه اسم « شاعر الفريق السياسى الذى لا يؤمن بالجمال » .. وقد كان «أبوختين» شخصية محبوبة لدى كبار الموظفين ، والنساء الجميلات ، لأنه كان نبيلا عريقا ، وموظفا مدنيا ورجل مجتمع . وفى منتصف العقد الثامن نال شعره تقديراً أكثر ، ونال هو شهرةً واسعة النطاق . ولقد كان يكتب بالأوزان البسيطة متتبعاً خطى « ألكسيس تولستوى » ، كما كان يضرب على النغمات الرخيصة والتافه من العواطف . وكانت أغانيه كئيبةً ، ولكنها لم تصل إلى مرتبة الشجن الحقيقى . وكان فكاهيا ، ولكن فكاهته لم تتعد مجرد البسمة المؤدبة فى حدود الذوق السليم . وكان يتغنى بمباهج الحب ، وخداعه ، وبالشباب الضائع ، وبما يحدث فى الحياة اليومية . ويعالج عددٌ من أغانيه المكتوبة بأسلوب الغجر ، المصير المحزن لمن يعيشون على هامش

الحياة ، وقد كتبت كلها بشبه غناء « مطربى المطريقة تقاهى »!

وكان « أبوختين » زميلا فى الدراسة لتشايكوفسكى وصديقاً لمسورجسكى ، الموسيقيين العظيمين اللذين لحنا أغانيه التى ظلت مفضلة لبضع سنوات عند الهواة ومطربى الحفلات الشعبية . .

وثمة شاعر آخر كان يعلو فوق صغار الشعراء علوًّا كبيرا ، هو « قسطنطين فوفانوف (١٨٦٢ – ١٩١١) الذى كان ينتمى إلى جماعة شعراء الأرستقراطيين لا بالمولد (فقد كان أبوه يدير حانوتاً صغيراً) ولكن بالنسبة لأدائه الفنى ، ولأنه كان غريماً للشعر الشعبي ومدافعاً عن نظرية « الفن للفن » .

فقد كرس « فوفانوف » أغانيه لوصف الطبيعة ، وألوان العواطف . وكانت بعض غنائياته ذات موسيقى غير عادية . وبالرغم من عدم تناسقها ، فإنها تكشف عن صناعة ملحوظة .

أما الشاعر العظيم بحق فى هذه الفترة والذى يقف فى صف واحد مع « ليرمونتوف » و « نيكراسوف » و « تيوتشييف » فهو « اثناسى شنشين » (١٨٢٠ – ١٨٩٢) الذى اشتهر باسم « فت » ، ولم ينصفه معاصروه باستثناء قلة مثل « تارجينيف » و « تولستوى » ، فقد كان يعيش فى عصر انتشرت فيه فكرة « الأدب ذو الرسالة القومية والاجتماعية » أو « الأدب الهادف » .

وإذ كانت قصائد « فت » تدور حول البلابل ، ورائحة الغاب ، وسحر نور القمر على وجه الحبيب ، اعتبرها أنصار « الأدب الهادف » لغواً فارغاً ، فتعرض بذلك لحملة وهجمات مدمرة ، إذ وصفه نقاده بأنه سطحى تافه ، كما وصفوا المعجبين به بأنهم حمقى سطحيون .

ولم يُعطَ « فت » المكان اللائق به ، إلا عند بداية القرن العشرين ، عندما أعاد الرمزيون تقييم الشعر الروسى . فقد كشف الرمزيون عن تأثيرات « فت » وبصره بالطبيعة ، وصفة المراوغة فى شعره ، كما أشاروا كذلك إلى المعنى الفلسفى لمؤلفاته ، فأوضحوا أن السبب فى عدم شعبيته لا يرجع إلى سطحية شعره ، بل إلى العمق الميتافيزيقى الذى لا يستطيع العامة أن يستسيغوه . وهكذا بدا « فت » متناقضا لعدد من النقاد والقراء ، ولكنا نعذرهم جميعا ، لأن شعر « فت » يحفل بالكثير من المتناقضات. كذلك كانت حياته متناقضة . فقد تزوجت أمه « شارلوت فت » من « شنشين » وهو نبيل روسى فى وطنها ألمانيا ، ولكن هذا الزواج لم يعترف به القانون الروسى رغم أنه أجرى حسب الطقوس اللوثرية ، فكان على « أثناسى » أن يحمل اسم أمه ويتقبل وضعه ذلك . وعلى الرغم من أنه جاهد عدة سنوات لتعديل لقبه ، فإنه لم يحصل على تعويض قانونى بأن يحمل اسم

شنشين ــ بما يتبعه من ميزات ــ إلا بعد أن بلغ الثالثة والخمسين . ولقد اتفق الاسمان مع المظاهر المختلفة لشخصيته ، فالشاعر « فت » كان يعجب بجمال الفن الإغريقى ، ويعبد الطبيعة والموسيقى والحب ، وعرف نشوة الإبداع ، وترجم عن جوته وحافظ ، بينما كان الإقطاعى اللاذع وسائق العبيد « شنشين » من الناحية الأخرى منهمكا فى إدارة أملاكه الواسعة ، وفى جمع المال ، لدرجة أنه كان لا يكاد يجد وقتاً للكتابة . . وكان فى شيخوخته فخوراً بلقب « رجل البلاط » الذى كان بوشكين يمقته بشدة ــ أكثر من افتخاره بشهرته الأدبية كشاعر . ولم يظهر هذا الرجل الانتهازى الشره الغليظ القلب فى حياته العادية ، شيئاً من المثل العليا التى حفلت بها قصائده . وحتى أصدقاؤه الحميمون عجزوا عن حل هذا اللغز : كيف كان ممكنا لهذا الرجل المادى النشيط ، صاحب الأملاك ، الذى كانت ثروته ثمرة مجهوداته ، أن يفصل نفسه عن جميع المشاغل الدنيوية ويحوِّل رقة الشعور ورقة المناظر إلى شعر لامع ؟

ولكن « فت » نفسه لم يُعانِ من هــذا التناقض ، بل وجده شيئاً طبيعيا . فكاد دائماً يؤكد الفرق الأساسى بين الحقيقة والشعر . . فالشعر يمثل عنده الهرب من العالم المادى إلى العالم المثالى . ولقد كان الاثنان على نهجين منفصلين لا يمكن أن

يتقابلا أو يمتزجا . وحتى فى شبابه ، كان يقول إن سحر الفن كائن فى التضليل الذى يخلقه ، وفى « كذبه المقدس » . ووصل فيما بعد إلى أن « كذب الفن قد يكون الحقيقة الكبرى » ، لأنه يُظهر جوهر العالم . . فالشاعر فى لحظة إلهامه يلمح ما هو مخبوء عن الجماهير . وفى قصيدة كتبها عندما جاوز الستين (وقد كتب أفضل قصائده إما فى شبابه وإما فى شيخوخته) شبه الإلهام الشعرى بطيران عصفور لا يكاد جناحه يلمس مياه البحيرة ! !

وكان « فت » يرفض أن يظل مجرد « متفرج على الطبيعة » . فمعظم غنائياته تمثل صور الغابات والاستبس ، والفجر ، وغروب الشمس ، والحدائق فى نور القمر ، وتباشير الربيع ، والصيف . ولكن هذه الومضات المؤثرة كانت تشير دائما إلى وحدة الكون وكليته . . . وفى رؤيته لوحدة الكون ، لمح العلاقة بين « هذيان النفس» المظلم و «الرائحة الغامضة للشعب » .. فالنفوس والنباتات كانت بالنسبة له مظاهر مميزة للسر الإلهى والجمال الكونى . وكان يؤكد أن الحياة البشرية ما هى إلا حلم ، وأن الفنان هو وحده الذى « يكشف آثار الجمال فى كل مكان » . وكان يقول إن « مذبح الكون الحى فوق متناول إدراكنا . وما نراه من أشعة أرضية وغير أرضية ما هو إلا انكسار شمس الحقيقة ،

وما هو إلا حلم عابر » ! .

وتحت تأثير الفلسفة الألمانية المثالية عام ١٨٤٠ ، تكوّن « فت » كشاعر . فترجم إلى الروسية مؤلفات « شوبنهور » الذى كان يعجب به أشد إعجاب ، ولكنه مع هذا لم يشارك مؤلف « العالم كإرادة وفكرة » فى تشاؤمه ، وإنما كان يؤمن باللذة الطارئة ، فلم يتقبل « حلم الحياة العابر » فحسب ، وإنما بجلّه وتذوقه بشهوة . وكان لا يفزع من الموت أو الفناء . وقد قال فى إحدى غنائياته النفاذة « إنها ليست الحياة التى آسف من أجلها — ما الحياة والموت فى هذا الدوران الأزلى ؟ . . . إنى آسف فقط على الشعلة التى أنارت الكون مرة ، وهى الآن تذبل فى الظلام ، وأبكى عندما أراها تذوى » .

وكانت الطبيعة والحياة تجتذبان « فتّ » بشدة . وكانت نغمات شعره لامعةً مرحة . فعبّـر عن فيض مشاعره العاطفية وحيويته الكامنة بلمسات دقيقة وبشكل سحرى . وكان « فت » سيد الفن الشعرى ، لأنه أضاف محصولاً كبيراً إلى الشعر الروسى . وقد استهوى تنوع تنغيمه وصفاء كتابته و رخامة شعره كثيراً من الأتباع من بينهم « بلمونت » و « بلوك » و « سولوجب » .

ولم يتمتع « فت » بالشعبية فى العصر السوفييتى . فقد

وصفه النقاد بأنه يهتم بالشكل الخارجي ، ولا يعمد إلى التوفيق بين الخيال والواقع . . . وحتى مقطوعاته الشعرية التى لُحنت ، قابلها النقاد السوفييت بهز أكتافهم . ويبدوا أن آراءه الإقطاعية هى التى أعاقته . ومع هذا ، فكثير من وصفه للطبيعة أو بعض القطع الكلاسيكية مثل « أنى آت — مرة ثانية بتحيات جديدة لأقول إن الشمس عالية فى كبد السماء » مسجلة فى الكتب الدراسية ، ويعرفها كل روسى متعلم تقريبا . وقدقال «تارجينيف» إن مَن لا يحب « فت » لا يحب الشعر . ولا تستطيع الاعتبارات السياسية ، ولا التغيير فى الأسلوب الشعرى ، أن تغير من الحقيقة ، وهى أن فت واحدٌ من أعاظم شعراء روسيا . وسوف يشعر القارئ الحساس بسحر عواطف ذلك الشاعر الذى رأى سر العالم خلف « أهداب النجوم الذهبية » والذى « تطلع من خلال الزمن إلى الأبدية » ، ولحظ وهج شمس الحقيقة ممثلة فى العالم » .

ومن الوجهة التاريخية ، لا يمثل « فت » نهاية تقاليد « بوشكين » فحسب ، وإنما يمثل أيضاً بدء اتجاه جديد . ومع أن معظم قصائده كتبت باللغة الصافية التى كان يكتب بها « بوشكين » ، فإنها كانت تفتقر إلى رقة « بوشكين » . كذلك كان « فت » بعيداً عن قومية « بوشكين » الواقعية ،

كما كان بعيداً عن عدم الاستقرار الاجتماعى الذى سيطر على « نيكراسوف » ، وكذا عن تحقيق « لورمونتوف » الأخلاقى . وكان شعره مليئاً بالمعانى والإشارات الخفية ، والحلاوة الموسيقية التى عبّر عنها بأشكال مرنة ساحرة .

وهذا كله معناه أن الحركة العظيمة فى الشعر الروسى التى بدأت فى عام ١٨٢٠ ، كانت قد وصلت فى ذلك الوقت إلى الذروة ثم أنهكت نفسها . وقد حدثت هذه الظاهرة نفسها فى ميدان النثر : ففى العقد الثامن بلغت « الواقعية » فى الأدب ذروتها ؛ كذلك كانت الحركة التى بدأت فى زمن « بوشكين » و « جوجول » قد أنتجت أعظم إنتاجها ثم ذبلت وماتت .

وبنهاية العقد الثامن ، كان العصر الكلاسيكى يوشك أن يختفى . فعصر الرمزيين فى الشعر ، وعصر « تشيكوف » فى النثر ، تساقطا إعياءً ، وفتحا الباب أمام تطور جديد فى الأدب الروسى .

الجزء الرابع

« تشيكوف »

تيشكوف

فى عام ١٨٨٠ صار طالب بكلية الطب ـ كان يكتب تحت أسماء مستعارة بلغت اثنى عشر أو أكثر ، قبل أن يشتهر باسم أنطون تشيكوف ـ محرراً منتظما فى عدة مجلات فكاهية تصدر فى موسكو ، مثل : « الذبابة الضخمة » و المنبه » و« الشظايا » إلخ . . . فكان يكتب متهكما ويعلق على الحوادث الجارية . وكان إنتاجه مليئا بالسخرية والهجو ولواذع الكلام والصور . وقد مكّنته قريحته ومرحه الهادئ من أن ينتج سيلا مستمرًّا من الكتابة .

وكانت بعض الأسماء المستعارة التى لجأ إليها هى « أخ أخى » و « طبيب بلا خبرة » و « رجل بلا طحال » ثم الاسم الذى كان مفضلا لديه هو « أنطوشا تشيخونت » ، وهو اسم أطلقه عليه أحد مدرسيه .

وقد ولد « تشيكوف » إبناً لبقال ، وحفيداً لأحد رقيق الأرض عام ١٨٦٠ فى « تاجانروج » وهى ميناء صغيرة على بحر آزوف فى جنوب روسيا . ولم تكن طفولته سعيدة . فقد

رُبىّ تحت نظام أبوى صارم ، وفى جو من تقوى الطبقة الوسطى الأرثوذكسية والإرهاق الريفى . وإذ لم تنجح أعمال البقالة ، التى كان أبوه يمارسها ، قرر بعد إفلاسه عام ١٨٧٦ ، أن يرحل إلى موسكو مع عائلته ، وترك « أنطون » البالغ من العمر ستة عشر عاما لينهى دراسته فى مدرسة محلية للرياضة البدنية . فكان عليه أن يكسب عيشه وأجر تعليمه عن طريق تعليم ضعاف الأطفال ، والقيام بما يطلبه منه تجار المدينة من أعمال . ولقد أثّرت فيه بيئته الكئيبة وظروفه القاسية ؛ ولكنه كان لحسن طالعه شاباً مرحاً مليئاً بالحيوية يتمتع بإحساس مرهف بالفكاهة وعقل صاف رائق .

وبعد انتهاء دراسته الرياضية فى « تاجانروج » لحق بعائلته فى موسكو ، فملأ الجو المنزلى مرحا ؛ حتى لقد قالت « ماريا تشيكوف » إن أفراد العائلة كانوا يميلون بطبعهم إلى الدعابة ، وإن أنطون جعل هذا الميل الطبيعى إلى الدعابة يزداد تألقاً ، فأقبل أفراد الأسرة جميعاً على كتابة التمثيليات الساخرة المضحكة .

وكان أول إنتاج « تشيكوف » الذى نُشر ، هو « كتاب إلى جار مدرسى » (١٨٨٠) ، وهو مجون ساخر على طريقة « جوجول » و « ليسكوف » مع الكثير من اللعب بالكلمات ،

وخلط الجد بالهزل . . . ثم ظهرت بعد ذلك قصص « ألف عاطفة وعاطفة » أو « الليلة المزعجة » (١٨٧٠) التى استلهم فكرتها من « نوتردام دى بارى » ومؤلفات «هيجو» الأخرى . أما كتابه « نصر لا ضرورة له » فيكاد يكون تقليداً للروائى المجرى الشهير « ماروس جوكيه » .

كذلك عارض «جولز فيرن» فى « الجزر الطائرة » (١٨٨٣). كما هزأ من قصص المغامرات الفرنسية التى لا تنتهى فى قصتى « أسرار المائة والأربعة والأربعين كارثة » و « روكامبول الروسى » اللتين كتبتا عام ١٨٨٤ ، ونُشرت أولاهما عام ١٩٢٣) ، كما كانت « دراما عن الصيد » سخرية من قصص القتل والجريمة .

ولم يكن « تشيكوف » فى كتاباته يحتقر أى غرض أو مظهر مهما كان منحلا . فقد كتب عن جوع الشبان للحب ، وظمأ الفتيات كبيرات السن (العوانس) إلى الجنس ، والأساتذة المذهولين ، وصيادى النساء المزهوين . وكان ينسق التقاويم الفكاهية ، ويكتب الإعلانات الهزلية ، ويرد على المراسلات ، ويعلق على الحوادث . ولم تكن تعليقاته لاذعة ، لأن الرقباء كانوا يقفون للسخرية اللاذعة بالمرصاد . ذلك أنه كان من الخطر جداً فى روسيا فى العقد الثامن ، أن يكتب المرء بسخرية ،

حتى فى موضوعات مأمونة الجانب مثل اللحى والرءوس الصلعاء ، لأن القيصر ألكسندر الثالث كان ملتحيا أصلع ! .

ولقد تمكن « أنطوشا تشيخونت ! » بفضل ما درت عليه كتاباته الفكاهية من أرباح أن يصير « أنطون تشيكوف » « الحائز على الدكتوراه ! . وفى العام ذاته الذى حصل فيه على إجازته الدراسية عام (١٨٨٤) نشر كتاب « قصص خرافية عن ملبومين » ، وهو أول مجموعة لقصصه التى كان الكثير منها مرحاً بهيجاً .

وكان « تشيكوف » يغشى المحاكم والأسواق وحلبات السباق والبارات وأماكن اللهو الشعبية باحثاً عن مادة للكتابة . . ومن ثم استطاع أن يقف على حقيقة أخلاق البوهيميين ، والكتبة ، وصغار الموظفين ، والقساوسة ، والفلاحين ، والعمال . وكان لا يعلق أهمية كبيرة على الإنتاج الأدبى الساخر ، ومن ثم كان يعجب فى خطاباته كم درت القصص الفكاهية من مال وكم منحت من شهرة لأمريكى كان يكتب باسم « مارك توين » ! ! كذلك كان « تشيكوف » فى نشأته الأولى ككاتب يقلل من شأن نفسه . . . فقد رفض عام ١٨٩٩ أن يضع قصصه الأولى ضمن ما جمعه . وكان يقول « لقد كتب أنطون تشيخونت ! » مادة كثيرة لا يستطيع « تشيكوف » أن يعترف

بها ! . . » وعندما نعيد قراءة قصص «أنطوشا تشيخونت ! »
اليوم ، نجد فيها كثيراً من العناصر البارزة فى إنتاج « تشيكوف »
الناضج ، إذ كانت كلها تدور حول تفاهات الحياة وحقارة البشرية.

وينسى النقاد دائماً عملية التحسن الذاتى التى مرّ بها
« تشيكوف » فى سنى دراسة الجامعة . ولقد كانت عملية طويلة
تطور فيها الكاتب الناشئ تطورا ملحوظا تمثل فى عمق تجربته ،
حتى ليمكن أن يقال إن الأدب الروسى لم يحفل بكثير من مثل
هذا النمو الذاتى المتطور الذى بلغه « تشيكوف » على حساب
مجهود شاق وتضحيات كثيرة ، وبعد نضال نفسانى مرير ،
وصراع مع البيئة . وقد كتب إلى « ألكسيس سافورين » فى
٧ يناير عام ١٨٨٩ خطابا يلقى شيئاً من الضوء على قصة حياته..
كتب يقول : « إن ما اعتاد الكتّاب النبلاء أن يأخذوه من
الطبيعة بلا ثمن ، أصبح على أفراد الطبقة السفلى أن يشتروه على
حساب شبابهم . . . اكتب قصة — أرجوك أن تفعل — عن
ابن الرقيق ؛ عن شاب عمل ذات مرة فى محل بقالة ، ورتل
مع الكورس فى الكنيسة ، ثم ذهب إلى المدرسة العالية فالجامعة..
أكتب عن شاب رُبىّ على احترام الألقاب وتقبيل أيدى القساوسة
وكثيراً ما ضُرب بالسياط.. اكتب عن هذا الشاب الذى اضطرته
قسوة الحياة أن يعمل مدرساً خاصا ، وكان يسد رمقه بما كان

يتناوله من طعام فى بيوت أقاربه الأثرياء ، والذى كان منافقاً نحو الله ! . . لقد كان رجلاً لا ضرورة له ، شاعراً بتفاهته . . اكتب كيف أن هذا الشاب يعتصر العبد الرقيق ليخرجه من كيانه نقطة نقطة ، وكيف أنه عند استيقاظه ذات صباح صاف ، شعر بأن الدم الذى يجرى فى عروقه لم يعد دم عبد . . . لقد صار دم إنسان صحيح بعد أن دفع ثمن تحريره ! . . »

وبعد حصوله على درجته الطبية ، بدأ « تشيكوف » تمرينه فى موسكو ، ولكنه لم يصبح طبيباً محترفاً قط ، لأن الأدب كان يجتذبه اجتذاباً شديداً لدرجة أنه قرر أن يكرس كل وقته للكتابة . . ولكنه أحب الطب ، واعتقد أن الطب ساعده كثيراً . . . ولعله أفاد من الطب والتحاليل الأكلينيكية ، وتسجيل أعراض الأمراض البشرية فائدة كبرى فى ميدان الكتابة .

وفى عام ١٨٨٥ كتب « جريجوروفتش » أحد كتّاب النهضة الواقعية المحنكين إلى « تشيكوف » يرجوه ألا يقبر مواهبه ، وأن يحترف الأدب . كذلك طلب إليه صديقه « ألكسيس سافورين » محرر جريدة « نيوتيمز » اليومية أن يكرس كل وقته للكتابة . . . ولقد فعل « تشيكوف » ما طلبه إليه صديقاه على مضض ، فصدر كتابه الثانى « قصص موتلى » (١٨٨٦)

الذى كان برهانا على اتجاه الرقى الذى كان عليه أن يسير صوبه : الرقى من كتابة الصور إلى كتابة القصة القصيرة . وبعد ذلك بعامين انتقل من القصة القصيرة إلى القصة الطويلة غير الممعنة فى الطول ، وهى نوع من القصة يختلف عن القصة الطويلة عند كتّاب الغرب أمثال « پو » أو « ا . هنرى » — فهى نوع من القصة لا تمثل مجرد قصة استطرادية ، ولكن تمثل استمراراً فى الحوادث ورسما للأخلاق ، وربما كانت أقرب إلى شكل الرواية القصيرة .

أما المجموعة الثالثة من قصص « تشيكوف » : « فى الشفق » (١٨٨٧) فقد كانت تشمل قطعا مكتوبة بمادة فكاهية أكسبته جائزة بوشكين فى أكاديمية العلوم عام ١٨٨٨ . وقد كانت الجائزة خمسمائة روبل فقط ، ولكنها كانت الخطوة الأولى فى سلم الشهرة الأدبية الواسعة . وفى عام ١٨٨٩ بلغ « تشيكوف » قمة مجده الأدبى ، فقد مُثِّلت النسخة المعدلة من رواية « إيفانوف » على مسرح ألكسندرسكى فى سان بطاسبرج . وكان أول تمثيل لها فى موسكو فى عام ١٨٨٧ قد قوبل بضجيج من الاستحسان والاستهجان . وفى ذلك العام ذاته نُشرت أول قصة طويلة من قصص « تشيكوف » وعنوانها « الاستبس » فى المجلة الشهرية « رسول الشمال » .

وقد أطلق المعجبون المتحمسون من أمثال « جارشن » على « تشيكوف » لقب « الفنان الممتاز » وامتدحوا عاطفيته فى وصفه للطبيعة فى قصة « الاستبس » ، وفهمه الدقيق لنفسية الطفل ، وكذا واقعيته الصافية . ومع هذا فقد عنّفه بعض النقاد « لترفه » وخلو إنتاجه من المعنى الاجتماعى ، غير عالمين أن « تشيكوف » كان يتجنب وضع المغزى قصداً . وفى خطاب له عن قصته « لصوص الخيل » — وهى واحدة من أفضل قصصه — سخر من أولئك الذين أرادوه أن يشير إلى أن سرقة الخيل عمل خاطئ ! . ذلك أن هدفه كان مجرد إظهار الناس والعادات كما هى ، دون أن ينصب من نفسه قاضياً أو واعظاً .

وكان « تشيكوف » فى الوقت ذاته يجتاز فترة من القلق والتأمل النفسى ، ولكن ذلك لم يحل دون نجاح تمثيلياته ذات الفصل الواحد : — « الدب » و « الفرس » و « الاقتراح » — وكذا قصصه القصيرة . فقد نجحت هذه القصص وأقبل عليها المحررون والناشرون ، وامتدحها النقاد ، فتدفق المال بين يديه ، وأصبح رجلا ذا مكانة أدبية ممتازة .

وفى نهاية العقد الثامن ، وقع تحت تأثير « تولستوى » ، وكان يبحث عن مشروع أدبى يستحق الذكر ، وأدى به هذا إلى أن يقوم فى عام ١٨٩٠ برحلة إلى سيبريا وجزيرة سخالين

لدراسة حالة المنفيين والمحكوم عليهم . وكانت الرحلة محفوفة بالمخاطر ، فخط سيبريا الحديدى لم يكن قد شُيّد بعد ، وكان على « تشيكوف » أن يسافر آلاف الأميال بالعربة ، وعاد من سخالين بطريق الهند ، والهند الصينية ، والسويس ، وأوديسا . وقد كتب فى ذلك إلى أصدقائه يقول « بعد أن جبت الهند والصين ، أستطيع أن أقول إننى لا أرى فرقاً كبيراً بين روسيا والممالك الأوربية الأخرى » .

ولم تكن النتيجة الوحيدة لهذه الرحلة هى كتاب « جزيرة سخالين » العظيم فى دراسته الإنسانية ، الممتاز فى حوادثه التصويرية وتدوينه الحقائق كما هى ، بل كان هناك كذلك « فى المنفى » و « جوسيف » وكذلك بضعة أخرى من قصصه التى استوحاها من أسفاره فى آسيا .

ولكن « تشيكوف » كان سىء الحظ . . . ففى نهاية عام ١٨٨٥ ظهرت عليه أعراض السل الرئوى .

وفى بداية عام ١٨٩٢ أرغمه استفحال المرض على أن يشترى مزرعة قريبة من قرية « مليخوفو » غير بعيد من موسكو لكى يقيم فيهـــا . وعلى الرغم من اعتلال صحته ، فقد كانت الفترة بين عامى ١٨٨٩ ، ١٨٩٧ وفيرة الإنتاج ، ففى غضونها ، نشر أفضل رواياته القصيرة مثل : « المبارزة » و « قصة كئيبة »

و « قصة بلا اسم » و « العنبر رقم ٦ » و « الفلاحون » و « حياتى » (وهى قصة إقليمية) و « الراهب الأسود » ، كما كتب بعض التمثيليات مثل : « العم فانيا » و « العاصفة البحرية » . ثم بلغ الذروة الروحية ، وتسنم قمة الشهرة بفضل بساطته ، وإخلاصه ورقته وتواضعه ، والملامح المعبرة فى وجهه الجميل وعينيه اللتين كانتا تشعان ذكاء وتهكما ، وصوته المستوى الأجوف قليلا ، وإخلاقه المتينة — كل هذا كان يعبر عن شفقة حقيقية وحكمة حزينة . ومع ذلك ، فإن هذا الرجل الذى يبدو مستسلما ، هذا التجسد للرجل « السطحى » الطيب القلب ، كان باستطاعته أن يكون حازماً صلباً فى نضاله ضد كل شىء لم يقبله ، أو بدا له مناهضا للمبادئ الأساسية للطيبة والكرامة الإنسانية . فعندما أبطلت أكاديمية العلوم عام ١٩٠٢ انتخاب « مكسيم جوركى » كواحد من الزملاء ، لم يكن لدى أحد من الأعضاء العديدين الشجاعة على الاحتجاج بالاستقالة سوى اثنين هما : « تشيكوف » و « كورولنكو » . ولم يكن الاحتجاج منصباً على الأكاديمية بقدر ما كان موجهاً ضد القيصر نفسه .

ولكن اعتلال صحته أرغمته على أن يقوم بعدة رحلات خارج القطر ، فأقام عام ١٨٩٩ مدةً طويلة فى القرم ، حيث صار هو و « تولستوى » من أصدق الأصدقاء . كذلك ارتبط

«تشيكوف» بصداقة قوية مع« جوركى» . وغالبا ما كان يزوره كثير من الكتاب أمثال « بونين » و « كوبرين » و « مانين سيبيرياك » . وعند نهاية القرن ، بدأت تمثيلياته تظهر على « مسرح موسكو الفنى » ، وظلت قبلة الأنظار لعدة فصول متعاقبة . وفى عام ١٩٠١ ، كتب قصة « الأخوات الثلاث » ، وتزوج النجمة « أولجا نيبر » التى مثلت دور « ماشا » فى التمثيلية ! ولقد كان زواجا عجيبا ، لأنها استمرت فى حياتها الفنية فى موسكو ، بينما بقى « تشيكوف » فى القرم بسبب السل الذى كان ينهش صدره . وكانت مراسلاته معها مثلا بارزا لأدب الرسائل . ذلك أن خطابات « تشيكوف » على العموم كانت ذات أهمية كبرى لا من وجهة النظر السيكولوجية أو سرد تاريخ حياته ، ولكن من حيث قيمتها الأدبية التى كانت تنافس بعضاً من أفضل كتاباته .

وفى عام ١٩٠٣ ، نشر« تشيكوف » آخر تمثيلياته « بستان الكرز » كما نشر رواية قصيرة جديدة « المخطوبة » . وحوالى عام ١٩٠٤ ، صارت حالته ميئوسا منها . وفى مايو من تلك السنة أرسل إلى « بادنويلر » وهى مصحة ألمانية ، حيث مات فى الثانى من شهر يوليو . ثم أُحضِر جثمانه إلى موسكو وورى التراب فى مقبرة«دير العذراء الجديد»مثوى الكثير من كتاب الروس .

ولقد كان « تشيكوف » عند موته واحداً من أقرب المؤلفين إلى قلوب الناس فى روسيا . كما أن هذه الشعبية — بما تخللها من اضمحلال طفيف بين عامى ١٩١٢ ، ١٩٢٢ — لم يضعف نموها إلى يومنا هذا ، ولا يبدو أنها سوف تضعف على الإطلاق فى المستقبل . فقد وضع النقاد « تشيكوف » فى مرتبة التقديس كأبر شخصية فى العصر الكلاسيكى فى الأدب الروسى . كما أكد القراء هذا الحكم بجبهم العظيم لأعماله — فبين عامى ١٩١٨ ، ١٩٤٧ بلغ ما نشر من مؤلفاته ثمانية عشر مليونا من النسخ .

وإذا كانت الإحصاءات تثبت شيئا ، فإنها تثبت أنه — باستثناء « جوركى » وبعض الكتّاب الكلاسيكيين الآخرين مثل « بوشكين » و « تولستوى » — لا يوجد مؤلف وتُستَحب قراءة مؤلفاته فى روسيا الحديثة مثل « تشيكوف » . فالطبعة الأنيقة التى تحوى جميع مؤلفاته وخطاباته فى عشرين مجلداً (٥٣٠٠٠ نسخة من كل) والتى تعهد بطبعها مكتب النشر عام ١٩٤٤ وتم طبعها عام ١٩٥٠ ، دليل محسوس على الحب الذى يكنه الروسيون لتشيكوف .

ولم يكن « تشيكوف » نفسه يعتقد أن مؤلفاته ستجد صدىً دائماً كهذا .. فقد كان يقول إنه وزملاءه الكتّاب ليسوا سوى

مجرد انعكاس لصور زمنهم « إنهم لن يطلقوا علينا أسماء تشيكوف وتيخونوف وكورولنكو وشيجلوف وبزهنسكى ، وإنما سيطلقون علينا « العقد الثامن » أو « نهاية القرن » . . ولقد أكد الزمن هذا الحكم أيضا ، إذ لا يكاد أحد اليوم يقرأ روايات «تيخونوف » و « فاسيلى » و « ألكسيس » أو القصص القصيرة لإيفان شيجلوف (وهو اسم ليونتيف المستعار) أو صور بزهنسكى ، وإنما أصبحوا كلهم يقرأون « تشيكوف » باعتباره مثلا عليهم جميعا .

ولعل ما عناه « تشيكوف » هو أن مجال موضوعات قصصه وتمثيلياته كان محدداً بأحوال عصره ، فاعتبر نفسه مؤرخ العقدين الثامن والتاسع . ولقد صدّقه كثير من النقاد حين قال ذلك . ولا تزال الكتب التى تصدر فى روسيا وفى الخارج تسمى مؤلفات تشيكوف « مرآة الحياة الروسية فى نهاية القرن التاسع عشر » . وليس ثمة شك فى أنها تعكس صور الغباء والاستهتار أيام حكم ألكسندر الثالث » . فتصويره للكهنة وللطبقة الوسطى والفلاحين ولطبقة المثقفين بصفة خاصة ، تصوير واقعى يمكن أن يفيد منه المؤرخون فى دراسة الجيل المغلوب على أمره الذى كتب عنه « تشيكوف » . وهذا يفسر لنا النغمة الكئيبة فى كتاباته ، وبلادة أبطاله ، والشعور بالتفاهة الذى يشيع فى

معظم قصصه . ولكن مع أن مثقفى « تشيكوف » الذين كانوا يجعجعون ويذوبون أسى دون القيام بأى أعمال ، وموظفيه القذرين الثقيلى المعشر ، ونسائه الشهوانيات التعيسات ، وفلاحيه الجهلة الذين يشبهون البهائم ، كانوا جميعاً ينتمون إلى الحياة الروسية فى العقد الثامن ، فإن هذا لا يفسر تماما تعلق الناس به ، لأن شهرته لم تقتصر على روسيا ؛ بل تعدتها إلى ممالك أخرى كثيرة ، وخاصة إنجلترا وألمانيا واسكندناوة والولايات المتحدة .

كذلك حطم «تشيكوف» القيود فى زمنه ، شأنه فى ذلك شأن جميع الكتّاب العظماء ، وكشف عن الينابيع الخفية للحياة ، وسجل لنا تفسيراً مبتكراً للسلوك الإنسانى عموما .

ولم يولد فى روسيا حتى الآن كاتب يمكن أن يقال إنه ملأ مكان تشيكوف .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٨

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة